الباب الأول

النقد الأدبي النشأة والتطور

ويشمل أربعة فصول :

الأول : نشأة النقد وتطوره

الثاني : النقد الذاتي والموضوعي ، الصلة بين الأديب والناقد

الثالث : الذوق الأدبي

الرابع : النقد عند العرب الجاهليين واتجاهاته

الفصل الأول

نشـأة النقـد وتطـوره

بـدأ النقد الأدبي مع بداية الأدب لتعلقه به وهذه حقيقة يؤيدها الواقع الأدبي والحقيقة المنطقية .

- وقـد عـرفت اللغة الفصحى بخصائصها المميزة لها قبل الإسلام بأكثـر من أربعة قرون ، ولا ريب أن البيان بها علي أشكال التعبير المختلفة شعراً وخطابة ، وقصاً قد تطور عبر مراحل عدة وصاحب هـذا الـتطور بـلا شك ذوق نقدي يستطيع أن يساير هذه التجارب الأدبية حتي استوت وينعت .

- وقـد وردت كلمـة الـنقد في اللغة العربية لتدل علي معان عدة واستعمالات مختلفة :

فمن معاينها ما جاء في لسان العرب :

النقـد : خلاف النسيئة " البيع المؤجل ثمنه " والنقد والتنقاد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها أنشد سيبويه :

تنفي يداها الحصى في كل هاجـرة

نفي الدراهيم تنقاد الصياريف[1]

- ومـن معانـيها العيب والنقيصة والتجريح فيكون المعني بعكس التقـريظ والمـدح ومن حديث أبي الدرداء أنه قال " إن نقدت الناس

---

[1] الدراهيم : جمع درهم أو درهام علي غير قياس . لسان العرب جـ٦ صـ ٤٥١٧ ط دار المعارف .

نقدوك ، وإن تركتهم تركوك " أي إن عبتهم وتتبعت عوراتهم قوبلت بمثله .

- ومـــن معانـــيها النقـــر بالأصـــابع : يقال نقد الشئ ينقده إذا نقره بأصبعه كما تنقر الجوزة .

- ونقر أرنبته " مقدم أنفه " بأصبعه إذا ضربها به قال الشاعر :

وأرنبة لك محمـــرة . يكاد يفطرها نقـــده

أي يشقها عن دمها :

- ومـــن معانيها : الاختلاس : يقال نقد الرجل الشئ بنظره ، ونقد إلـــيه أي اختلس النظر نحوه ، وما زال الرجل ينقد نظره إلي الشئ إذا لم يزل ينظر إليه .

- ونقد الطائر الحب ينقده : إذا كان يلقطه واحداً واحداً

- ونقـــد الطائر الفخ ينقده بمنقاره أي ينقره لينظر ما وراءه من أمن أو خوف .

- ونقدته الحية أي لدغته .

- هذه المعاني جميعاً لكلمة " نقد " عرفها العرب ، واستعمال العرب لهـــذه المعاني تلتقي مع معناها الآخر وهو النظر والفحص والتمييز وهـــي معـــان تقترب من مدلول الكلمة عندما نضيف إليها الأدب أو نوصف به فيقال نقد الأدب ، أو نقد أدبي ، أو النقد الأدبي

وخلاصة القول أن لفظة " نقد " تدور حول معان ثلاثة هي :

١) التمييز ٢) الاختبار ومنه النقر بالأصبع ليختبر جوده الشئ
٣) الإيلام ، ومنه لدغ الحية .

وهـــذه المعاني الثلاثة موجودة في الأدب فالمعني الأول وهو التمييز موجـود فيه ، كما أن تمييز الدراهم هو فصل صحيحها من زائفها فكذلك نقد الأثر الأدبي هو تمييز وفصل جيده من رديئه ومعلوم أن هذا التمييز والفصل يتطلب خبرة كبيرة بأدوات النقد كالبصيرة الثاقبة واتساع الثقافة والإلمام بعلوم اللغة .

– والمعني الثاني وهو الاختبار موجود في النقد الأدبي أيضاً، فمعناه الفحص الدقيق والتأمل الواعي وتلك مرحلة تسبق التمييز لأن الناقد قـبل حكمـــه علي العمل الأدبي بالجودة أو الرداءة ودرجته من كل مـــنهما أو التوســـط أو الامتـــياز أو الانحطاط لابد أن يفحصه أولاً ويتأني في تأمله ليقف علي ما فيه ولتظهر لديه جوانب العمل الأدبي ظهوراً بيناً لا غموض فيه ولا التواء .

– وأما المعني الثالث وهو الإيلام فيقع في الأدب أحياناً ، وذلك عند بيان وذكر ما في الأثر الأدبي من مآخذ وعيوب ومثالب فلا شك أن فـــي ذلـــك أيـــلام شـــديد لدى المنقود ،خاصة إذا كان التركيز علي المعايب دون المحاسن .

- ويمكنـــنا أن نـــضيف إلي معاني " النقد " : الحكم وهو المحصلة النهائـــية للـــنقد ، كما أنها تغطي كل جوانب الأثر الأدبي أو النص فلابد أن يكون الحكم عاملاً وشاملاً .

* فالنقد إذن فحص الآثار الأدبية ودراستها لتمييز جيدها من رديئها والحكم لها أو عليها ، ويكون ذلك من ناقد مستكمل الأداة مع الشرح والبيان والتعليل .

والـــنقد يقتضي " الإلمام الكافي بالظروف المختلفة التي أسهمت في النص الأدبي المنقود " .

* وقد عرف بعض الباحثين النقد الأدبي بأنه :

" تقويم النص الأدبي بالكشف عما فيه من جمال أو قبح " [١]

فالنقد مهمتان : مهمة التفسير ، ومهمة الحكم .

- والنقد الأدبي تعبير محدث وهو علي حداثته وثيق الصلة في معناه العام بالأصل اللغوي [٢]

---

[١] اتجاهات وآراء في النقد الحديث د / محمد نايل .

[٢] معالم النقد الأدبي د / عبد الرحمن عثمان .

تطور مفهوم النقد واستعمال العرب له

أما استعمال العرب لكلمة النقد فقد جاء متأخراً

ففي القرن الأول : استعملوا " العلم بالشعر " الذي هو أساس ومرتكز عمل الناقد ، فقد روى " ابن سلام الجمحي " في طبقاته عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : " وكان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوحات ، واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر " .

وفي القرن الثاني : " اتجه النقد إلي تمييز الشعر الصحيح من المختلط " المنحول " لأن بعض الرواة وضع في شعر بعض الشعراء ما ليس منه – بدافع ما – وصار لا يستطيع القيام بهذه المهمة إلا من عنده علم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم وصار من يقوم بذلك يعرف بالعالم الناقد .

يروى أبو الفرج الأصفهاني عن المفضل الضبي المتوفي سنة ١٦٨ هـ وهو بصدد الحديث عنه " حماد الراوية " قوله :

" وقد سلط علي الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً فقيل له وكيف ذلك ؟ أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ فقال ليته كان كذلك فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلي الصواب ولكنه رجل عالم

بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره ، ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ ! " [1]

من خلال الحديث السابق للضبي الذي بين فيه جناية حماد علي الشعر يتضح الآتي :

أن ممارسة النقد والبراعة فيه وإتقانه لا تتأتي لكل عالم ، وإنما لكل من كانت له بالشعر خبرة وذوق ، ويحفظ الكثير من الأدب حتى تكونت عنده ملكة الذوق الأدبي فاستطاع الفهم والتفسير والحكم واستطاع أن ينقد الشعر ويحكم عليه .

روي ابن سلام الجحمي المتوفى سنة ٢٣١ هـ قال : قال قائل لخلف الأحمر إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك .

فقال خلف : إذا أخذت درهماً فاستحسنته . فقال لك الصراف : إنه ردئ هل ينفعك استحسانك له ؟

ثبت إذن أن الخبرة والدربة والفطنة والصبر علي فحص النصوص هي ثمرات للدراسة المتتابعة . وهي التي تكون ملكة الذوق الأدبي التي هي لازمة للناقد كما أنها تعينه علي العلم بما ينقد .

---

[1] الأغاني جـ٦ صـ٨١ ط دار الكتب .

أما في القرن الثالث الهجري : فقد استعملت كلمة النقد مضافة إلي الشعر ، وصار يفهم منها : تمييز جيد الشعر من رديئه ، وبهذا المعني انفصل معني آخر عن النقد وهو معرفة غريبه ومنحوله وإعرابه التي صارت صناعة آخرى غير نقد الشعر .

روى عبد القاهر الجرجاني عن صاحب للبحتري الشاعر المتوفي سنة ٢٨٤هـ هذا القول " رآني البحتري ومعي دفتر شعر فقال : ما هذا ؟ قلت : شعر الشنفري ، فقال : وإلي أين تمضي به ؟ فقلت : إلي أبي العباس أقرؤه عليه ، فقال : قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابة فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً للألفاظ ، ورأيته يستجيد شيئاً وينشده وما هو بأفضل الشعر فقلت له : أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه "[1]

– إذن هذا المعني وهذا الاستعمال للنقد ظهراً علي ألسنة الشعراء وصار النقد عندهم يعني شيئاً جديداً ، بيد أن هذا الاستعمال لم يرد في كتب الأدب أو النقد التي ظهرت آنذاك فلم يذكره ابن سلام في " طبقات الشعراء " ولم يذكره ابن قتيبه في " الشعر والشعراء " ولم يذكره ابن المعتز في " البديع " .

– أما من ناحية الشعراء فصار الناقد عندهم ذا حاسة فنية بها يفهم دقائق الأشياء ويميز بذوقه الرفيع الأشعار ويبين جيدها ورديئها .

---

[1] دلائل الأعجاز صـ ١٧٤ تصحيح وشرح وتعليق أحمد مصطفي المراغي ؟ المكتبة المحمودية التجارية .

يقول الشاعر " ابن الرومي " :

يا أبـا جعفـر تحكـم في الشعـر وما فيـك آله الحكام

إن نقد الدينـار إلا علي الصيرف صعب فكيف نقد الكلام

قد رأيناك لست تفرق في الأشعار بين الأرواح والأجسام

- ويقـول أيضاً يهجو الأخفش في سخرية لاذعة ويلوم من عرض شعره عليه :

قلت لمن قال قد عرضت علي الأخفـ ش ما قلتـه ، فمـا حمـده

قصـدت بالشعـر حيـن تعـرضـه علي مبيـن العمـي إذا انتقده

مـا قـال شعـراً ولا رواه فـلا ثعلبـة كـان ولا أسـده

فـإن يقـل إنـي رويـت فالـدفـ تـر جهـلاً بكل مـا أعتقـده

إلي أن قال :

وقـال قـولاً بغيـر معـرفـة إفكـاً ، فمـا حل إفكه عقـده

شعـري شعـر ، إذا تأمـلـه الإ نسان ذو الفهم والحجي عبده[1]

أما في القرن الرابع : فقد ذاعت كلمة النقد ، وانتشر استعمالها لما لها مـن مدلـول أدبي ، وربما رجع الفضل في ذلك إلي مجموعة من العلماء كأبي بكر الصولي في كتابه " أخبار أبي تمام " والآمدي في كـتابه " الموازنة بين أبي تمام والبحتري " ، والقاضي علي بن عبد

---

[1] ابن الرومي ، حياته من شعره صـ ٢٧١ .

العزيز الجرجاني في كتابه " الوساطة بين المتنبي وخصومه " وأبي هلال العسكري في كتابه " الصناعتين "

وكـــذلك كـــتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر ، وكتاب " نقد النثر " الـــذي نـــسب إلـــي قدامـــة ، بيد أن البحث العلمي أثبت أنه لمؤلفه " الحسن بن وهب " الكاتب .

- **ولما جاء القرن الخامس الهجري** : زاد مفهوم كملة " نقد " تأكيداً ووضـــوحاً وتمكـــن رســـوخها فضل تمكن ، وذلك بفضل نخبة من المفكـــرين والنقاد وأهل الفكر والذوق من أمثال الإمام " عبد القاهر الجرجاني " والمزروقي وابن رشيق صاحب كتاب " العمدة "

بهـــذا : يمكـــن أن نقول أن النقد قد اشتهر وذاع بعد القرنين الرابع والخامس في كتب النقد ولكنه وجد قبل ذلك في عديد من الكتب دون التصريح بلفظه أو الإشارة إليه .

الفصل الثاني

النقد الذاتي " الإقناعي " - والموضوعي

١) النقد الذاتي : الإقناعي " التأثري " :

وهو مجرد الاقتصار علي الاستحسان أو الاستهجان في مجال النقد ، أي يبني الناقد نقده استجابة لمشاعره الشخصية النفسية وتذوقه الفني للأثـــر الأدبـــي دون أن يسبق هذا الاستحسان أو الاستهجان بدراسة فكرية ، أو بتمهيد لهذا الحكم ، وهذا ما سماه المحدثون بالنقد الذاتي أو التأثري وعند القدماء كان يسمى " الإقناعي "

وإذا اتفقنا أن النقد الأدبي هو ذلك التفسير والحكم اللذان يقومان علي أعمدة أساسها التذوق الفني الناجم عن الإحساس المرهف بالجمال ، أو بالقـــبح فـــي الـــنص الأدبي ومكوناته ، والثقافة الفكرية الراقية ومكـــوناتها ، وما يضاف إليها وإلي النص من اطلاعات علي النقد الغربـــي بلغـــته ، أو مترجماً فإن التذوق الفني أو الجمالي للنص لا تـــتعدى فائدته الناقد ، كما أن تحليل النصوص الأدبية والحكم عليها مـــن غير تذوق قد لا يجدي ، وهذا ما يعني القول بضرورة اجتماعَ الطرفين عند الناقد .

وفلاســـفة هـــذا الفن مثل " تين " الفرنسي ، و " كروتشه " الإيطالي يرون أن الذوق الشخصي لا قيمة له عندهم .

أمـــا أصـــحاب هذا المذهب " مذهب النقد الذاتي " فيرون أن الذوق الشخـــصي هو كل شئ في إدراك ما في العمل الأدبي من جمال أو رداءة ، إذ الذوق عندهم هو الفيصل والمحك الذي تقوم عليه عملية النقد .

والأذواق عندهم لا تعلل ، كما أنها ليست وسيلة من وسائل المعرفة التـــي يمكن أن يسلم بها الغير ، وإنما هي وسيلة إلي إدراكات معينة تـــستتفر فـــي شعور المتذوق " الناقد " رضاً أو سخطاً ، وكأني بهم أرادو أن يقولـــوا أن تـــذوق الناقد لما في العمل الأدبي من جمال أو غيره يوفر له اللذة الذاتية حيث يرضى عما يقرأ ، فاستحسان الناقد واستهجانه مردهما إلي الذوق الخاص به في العمل الأدبي .

فهـــذا أبـــو عمـــرو بن العلاء كان يستجيد قول المثقب العبدي في قصيدته التي قال فيها :

فإما أن تكون أخي بحق فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطرحني واتخذني عـــــدواً اتقـــيـــك وتتقينـــي

ويقـــول : لـــو كـــان في الشعر مثلها لوجب علي الناس أن يتعلموه فالأبـــيات تـــدل علي لون من الشعر استجيد في معني خاص وهو الصدافة الحقة التي ترقي إلي مرتبة الأخوة كما في قوله " صلي الله عليه وسلم " : " المؤمن مرآة أخيه "

٢) النقد الموضوعي :

وهو أن يجمع الناقد بين تذوقه الجمالي ، وبين الشرح والتعليل لهذا التذوق وهذا الشرح والتعليل مستمدان من دراسة العمل الأدبي ظاهراً وباطناً ، مضافاً إليهما التعرض لصاحب العمل الأدبي والمؤثرات العامة فيها والحكم علي قيمتها وتقدير درجة العمل الأدبي تقديراً فنياً دقيقاً .

- أي أن النقد الموضوعي هو الجمع بين التذوق والتفسير والحكم علي العمل الأدبي مضبوطاً بقواعد مرسومة وقوانين موضوعة اتفق عليها السابقون واتخذوا منها المثال الذي يقاس عليه ، ويقارن به .

- ولا جرم أن هذا الحكم الصادر عن الناقد قد يكون لفتة أدبية تظهر جوانب النص من حسن وقبح وتفصل مقوماته وذلك كالنظر إلي ما فيه من تجربة شعرية قائمة علي الفكر والعاطفة والخيال والإيحاء والصور ، ثم الموازنة بينه وبين نصوص أخري مماثلة لذلك النص في الموضوع ذاته وقد بلغت تلك النصوص درجة عالية من الحذق والجودة .

- ومما يعين الناقد في نقده هذا :

* معرفته بالبيئة العامة والخاصة للأديب الذي أنتج العمل الأدبي .

* كذلك معرفته بالجانب النفسي له .

هذا بالإضافة إلي ثقافة الناقد ، وذوقه ، وملكته السليمة .

وملكـــة الـــذوق هي التي تهدي الناقد إلي مبررات الحسن والقبح أو الجـــودة والـــرداءة ممثلة في صور ، وضوابط ، يفضلها الناقد علي غيرها .

- والنقد الموضوعي تكفي فيه مجرد اللفتة الأدبية التي يلحظها الناقد علـــي النص أو العمل الموجود أمامه . وذلك لأنها تقوم مقام الشرح الطـــويل والتعلـــيل المسهب ، وذلك لأن اللفتة هذه تخرج النقد من الذاتية إلي نطاق الموضوعية مثال :

عارض الكميت الأسدي قصيدة ذي الرمة التي يقول فيها :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب كأنها من كلي مفرية سرب

واجتمع الكميت ببعض الشعراء وأنشدهم قوله حتي إذا بلغ قوله :

أم هل ظعائن بالعلياء نافعة وأن تكامل فيها الأنس والشنب [1]

فعقـــد نصيب الشاعر واحدة ، فقال لها الكميت : ماذا تحصي ؟ فقال خطؤك ، لقد باعدت في القول : ما الأنس من الشنب ؟

فنصيب نقد معني بيت الكميت لأنه جمع بين أمرين لا يجتمعان في الـــذهن ولا في الخارج ، ولم يأت بما سمي فيما بعد بمراعاة النظير وإنما أتي بكل كلمة من واد .

خلاصـــة القـــول : أنـــه لا بـــد للناقد من توفر الفطرة السليمة أي " الاســـتعداد الموهوب " ورقة الإحساس والإدراك الصحيح ، وسعة

---

[1] الإنس : ضد الوحشة ، والشنب : برد الإنسان ورقتها وعذوبتها

الخـــيال ، وحـــضور البديهة وهو ما يؤدي إلي وجود السليقة النقية والحاسة النقدية ، والخبرة الأدبية القائمة علي حسن الإدراك وصحة الفهـــم وذلـــك كلـــه مضوماً إليه سعة الثقافة لتؤدي في النهاية إلي الترتيب والتنسيق ، وربط المقدمات بالنتائج والأسباب بالمسببات .

وجديـــر بالذكـــر هـــنا أن كـــل فـــريق من النقاد سواء الذاتيين أو الموضوعيين قد انتصر لمذهبه ، ودافع عنه معللا ذلك بعلل لا تخلو من صواب ، وفي هذا كلام كثير خلاصته : أن جمهور نقاد العرب موضوعيون : بتعبيرنا الحديث " يرون للجمال صفات حقيقية فيه ، وهم في حكمهم علي هذا الجمال يبنون أحكامهم علي ما يعرفونه من تلـــك الصفات ، ويجتهدون في الكشف عن أسباب الجمال إن أدركوا الجمال بأذواقهم ، ولم يكونوا قد وصلوا إلي الكشف عن أسبابه [1]

---

[1] انظر أسس النقد الأدبي عند العرب : أحمد بدوي صـــ ٨٥ وما بعدها .

طريقة النقد " الناقد مع العمل الأدبي "

مـــن خلال مطالعات الآداب الرفيعة الرائعة يستطيع الناقد الموهوب الـــذي يمـــتلك ذوقاً أدبياً رفيعاً وجادت ملكته ، وأثمرت قريحته أن يضع لنفسه خطة في نقده للعمل الأدبي ، هذه الخطة غالباً تقوم علي قـــواعد منطقـــية اكتـــسبها الناقد من كثرة مطالعاته ، وهذه القواعد المنطقية يرتبها الناقد ترتيباً معينا حسب فلسفة معينة يرتضيها هو ، ســـواء كانت تسير مع العمل الأدبي كتكوين ، أو كثمرة ، ثم يطبق الـــناقد هذه القواعد في نقده تطبيقاً دقيقاً علي نحو لا يكاد يترك شيئاً من جوانب النص الفنية إلا ويفسرها ويحللها ويقدم لها حكماً .

- ولا ينبغـــي أن تغـــيب عن الأذهان حقيقة مهمة ألا هي أن النقد الأدبـــي قد يعجز أمام شرح الحالة الفكرية التي تجعل الأديب يسير في طريق الابتكار الأدبي ، أو شرح الحالة النفسية التي تلم بالأديب وذلـــك لأن النقد يسير منقباً في ظلال هذه الملكات ، محاولاً كشف خـــباياها ، بيد أنه لا يخلقها خلقاً . وبذلك نري النقد والناقد يمضيان في طريق الشرح والتفسير حتي يصلا إلي نهاية الشوط فتتبين طبيعة النص وجوانبه ، ويضع الناقد حكمه في موضعه الصحيح .

وللنقد الأدبي في وصوله إلي غايته وهدفه طريقان :

<u>الأول :</u> أن يضع الناقد للنص قواعد وضوابط ينقده علي أساسها غير متبع هواه أو فكره في ذلك .

بمعنـــي أن الـــناقد يقبل علي النص الأدبي ليحكم له أو عليه بأحكام ومقاييس نقدية قد اطمأن إليها وارتضاها كنتيجة من نتائج اطلاعاته الـــسابقة ومعرفته التي عاش يعمل للوقوف عليها والوصول إليها ، والتي من خلالها تكونت لديه مقاييس للجمال والقبح كما تكونت عنده درجات لكل منهما

هذا المنهج ذكره الدكتور عبد الرحمن عثمان في كتابه " مذاهب النقد وقـــضاياه " وســـماه " الـــتدرج في النقد من الأدب العام إلي الأدب الخـــاص " وهو ما يسمي المنهج الاستنباطي " الذي يطبق من العام إلـــي الخاص " وهو منهج أفلاطون فهو يقرر نظرية المثل ويطبقها علـــي الفنون تطبيقاً منطقياً دقيقاً ثم جاء من بعده أرسطو وطبق تلك النظرية " الاستنباط "

<u>الثانـــي :</u> الموهبة في التعامل مع النص ، بمعني أن يقبل الناقد علي الـــنص لدراسته ومعرفة مزاياه الخاصة التي تضعه في درجة معينة من الجودة أو الرداءة من خلال النظر إلي الأشباه والنظائر ، ويمكن ذلك بدارسة النص من حيث الأسلوب – اللغة والألفاظ وصفاتها من إيحـــاء وجـــزالة وألفة أو ابتذال ، كذلك النوازع والأخيلة والصور والعاطفـــة ومصادرها وسماتها ، ومدي ارتباط ذلك بالتجربة الأدبية وطبيعـــتها وجـــوانب الفكر فيها ، ويقابل الناقد ذلك بنماذج متشابهة فـــيوازن بـــين الـــنص المـــنقود وبين تلك النماذج بحيث تسفر هذه

المـــوازنات عن بيان واضح يؤدي إلي ظهور الفرق ظهوراً واضحاً مع دقة التفسير والبعد عن الهوي في إصدار الأحكام .

- كـــل مـــا ســـبق من حديث عن طريقة النقد نجده في طرق النقد الحـــديث إذ يتناول النقد الحديث العمل الأدبي بالشرح الدقيق الواعي ثم يحكم عليه فيأتي الحكم دقيقاً مقبولاً .

أما النقد القديم فالسمة الغالبة عليه هي الشرح القليل ثم الحكم بالجودة أو القبح ، وذلك لأن النقاد الأوائل تجاوبت أنواقهم مع من يتعاملون معهـــم من قراء وسامعين ولذلك كانوا يجدون في الشرح الموجز ما يغني عن الإطالة .

وهذا الاختلاف والتمايز بين النقد الحديث والنقد القديم هو في الحقيقة ســـمة من سمات النقد الحي المتطور مع الزمن والفكر والثقافة وما يؤثـــر فـــيه من عوامل . وهو ما يؤدي إلي اختلاف المناهج النقدية علي مر العصور .

وهنا لا بد من أمور ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار:-

أ) أن ثقافـــة القدماء كان لها طابعها المخصوص ، فقد كانت ملكاتهم المتـــصلة باللغـــة قوية لذا فهموا أسرارها . وثبروا أغوارها ، فلما بدأت حركة امتزاج الثقافات وظهر أثرها ، بدأت المناهج تتكيف مع الثقافة وتطورها

ب) أن مـــن أراد النقد والسير في طريقه فلا بد له من الاطلاع علي مـــا أنتجـــته القرائح في عصورها الأولي من مناهج لأن بعض ما يستحدث من مناهج هو في الحقيقة مبني علي أساس من مناهج سابقة

ج) أن أي اخـــتلاف فـــي منهج من المناهج النقدية لا يقلل من شأن المنهج الآخر خاصة إذا كان فيما مضي من عصور ، لأن ما مضي إنما كان مناسباً لبيئته وزمانه .

– وبعـــد هذا كله ورغم اختلاف طرق النقد ، وكذلك رغم اختلاف انـــنقاد حول عمل أدبي واحد نتيجة لعوامل معينة فإن هناك خطوطاً عامة يشترك فيها النقاد جميعاً وهي :

أولاً : ربط العمل الأدبي " النص " بالعصر الذي قيل فيه ، لما لذلك مـــن أهمـــية تساعد علي دقة النقد ، فصلة العمل بعصره لها أهمية كبيرة إذ بها يقف الناقد علي ثقافة العصر السائدة ، وتاريخه وما فيه مـــن مؤثـــرات علي الأديب من ناحية الفكر والاجتماع وغير ذلك ، وحجم هذه الأثر ، وكذلك البيئة العامة والخاصة للأديب وما تفصح عنه دراسة النص من كشف لطباع الأديب ومزاجه وما يتصل بهذه الأمور ما يكون له الأثر في نتاجه .

ثانياً : التحقق والتثبت من نسبة النص إلي قائله ، ومرجع ذلك إما إلى الديوان المحقق أو إجماع الرواة الثقاة على صحة نسبة النص إلى صاحبه أو أخذ النص عن صاحبه مشافهة وهى وظيفة الناقد .

وقد كثرت طرق الحصول على النصوص الصحيحة النسبة إلى قائليها خاصة في العصر الحديث حيث إن الدواوين قد طبعت في الغالب في حياة أصحابها وعقدت حولها مناقشات وندوات أدبية تساعد علي صحة نسبة العمل إلي صاحبه من غير صعوبة

ثالثاً : الوقوف على أمور أثرت في الأديب من قريب كأساتذته وشيوخه وبيئته الخاصة أو من بعيد كالأحداث والثقافات المنتشرة في عصره .

- هذه الأمور والطرق تعد تحضيراً للعمل الأدبي الذي سيكون قيد النقد والوقوف عندها ضروري قبل الولوج في نقد العمل الأدبي .

ثم بعد ذلك يقوم الناقد بـ :

° قراءة متأنية عدة مرات يصل منها إلي التعمق في فهم النص والتعرف علي كل جوانبه والغاية التي من أجلها قيل .

° ثم شرح النص وتحليله ، وموازنته بغيره من النصوص مما تتفق معه في نفس المضمون سواء أكانت سابقة أم لاحقة . من حيث الغاية منه ، وأهميته ، ومدي حسنه أورداءته ، وما مضمونه ، هل بلغ غايته منه أم لا ، وهل أجهد نفسه حتي بلغ غايته أو لا والوقوف

مـــع اللفـــظ ، والمعني ، ومدي استقامة المعني واعوجاجه ، ومدي مناســـبة اللفـــظ للمعنـــي ومـــا الـــصور والأخـــيلة التـــي احتواها اللفـــظ ..... الـــخ ، ممـــا يؤدي في النهاية إلي استجلاء العمل الأدبي من كافة جوانبه .

الصلة بين الأديب والناقد

° الأديب صوت البيئة ، يتأثر بها ويظهر ذلك في أدبه بصورة عامة وتنعكس في كل ما يقول من ألفاظ وأساليب وصور وإيحاءات ، لذا يجدر بالناقد الأدبي أن يكون علي دراية ببيئة الأديب العامة والخاصة علي السواء ، فلكي يستطيع الناقد فهم كتاب أو قصيدة أو أثر أدبي فلا مناص له من معرفة بيئة المؤلف " الأديب " وذلك لأن كل أديب تختلف بيئته عن الآخر اختلافاً كلياً ، فالبيئة الجاهلية لامرئ القيس تختلف عن البيئة الإسلامية لحسان بن ثابت وتختلف عنهما البيئة العباسية لأبي العتاهية وقد كان لهذا الاختلاف أثره في نتاج هؤلاء نوعاً وسمة وموضوعاً ، ومعرفة الناقد بتلك البيئات ضرورية لأن البيئة تؤثر في الأديب وتطبع أسلوبه بواقعها وتوجهه غالباً نحو موضوعات بعينها ، ويظهر ذلك ويستبين حينما تؤثر البيئة في نفس الشاعر فيتمخض عن تعبير أدبي من شعر ونثر .

– والسمات التي تفرق بين نتاج أديبين ، أو أدباء ضمتهم بيئة عامة واحدة إنما تعود لتأثير البيئة الخاصة التي ترسم ملامح هذا التغير بينهما ، مضافاً إلي ذلك بعض الثقافات والأمور التي تميز انفعاله بالتجربة وتطبعها بطابع خاص تظهر فيه شخصيته بشكل أو بآخر .

– ومجمل القول أن الواقع الذي يعايشه الأديب تظهر بصماته وتتضح قسماته علي نتاجه الخاص ، فيأتي مختلفاً في بعض جوانبه أو في طريقه تناوله للموضوع .

وعـودة إلي الأدب عبر أزمنته المختلفة لنجد من الأمثلة ما يصحح ويوضح لنا ما سبق من حديث .

- فهـا هـو ذا الشعر الجاهلي يتأثر بالبيئة من حوله فيغترف منها الشعراء موضوعاتهم ، وتشبيهاتهم وصورهم ومعانيهم ، وظهر ذلك عـندهم علـي نحـو واضح يمكن تطبيقه علي كثير من الأمثلة في الشعر الجاهلي .

- فـإذا انتقلنا إلي العصر الإسلامي " صدر الإسلام " وجدنا أشعار الشعراء الذين تعاملوا مع البيئة الإسلامية واعتنقوا الإسلام قد اتخذت طابعاً جديداً في اللغة والأسلوب والعاطفة والصور والموضوعات .

- وهـا هـو ذا الأدب الأمـوي يصطبغ بصبغة البيئة الأموية التي امتلأت بالصراعات السياسية حتي ظهرت في الشعر بصورة جعلت السياسية هي المظهر الأول فيه آنذاك .

- ومـن ينظـر إلي الشعر والنثر العباسيين وقد ارتسمت في ذهنه صـورة البيـئة العباسـية فإنه يجد أثرها في معاني الأدب وأخيلته وموضوعاته وصوره وألفاظه وأساليبه ..... الخ .

* ويجـدر بالـناقد الأدبي بعد وقوفه علي بيئة الأديب أن يقف علي الجانـب النفسي وأبعاده عنده كما ينبغي له أن يعرف أن الشاعر لا يفـسر تجربته تفسيراً لأن تفسيرها يحيلها إلي نتف نثرية تنعدم فيها

الحـــرارة والظلال والشعور ، كما أن الناقد يتحول حينئذ إلي مفسر وشارح

– بيد أن الشاعر أو الأديب عموماً يعاني التجربة ويعمل علي نقلها إلـــي ســـامعه أو قارئـــه ، كما عاناها الأديب وهذه التجربة هي في الحقيقة نتيجة لأسباب نفسية بعيدة العمق كثيرة اللبس والتحول .

فإذا اكتفي الناقد بالمعني الواضح فإنه حينئذ يكتفي بالنتيجة الظاهرة دون الأسباب الحقيقية التي أدت إليها لأن المعني الواضح في النص أشبه بدليل ينبغي أن يسعي الناقد لاقتفاء آثار الأديب في رحلته عبر التجـــربة الشعرية ، فمن الضروري أن ينطلق الناقد منه للولوج إلي الأســـباب البعيدة التي ولدت التجربة في نفس الأديب دون أن تتضح في النص بصورة مباشرة جلية بل تضمر وراء ظاهر المعني .

– ومعني هذا أن يسأل الناقد نفسه : ما الدوافع والبواعث التي دفعت بالأديب إلي قول ما يقول ؟

فهذا بشار يعلن إشادته بالنار معبودة قومه " الفرس " ويفضلها علي الطـــين ، بل ويفضل إبليس علي الإنسان " آدم " مع أنه مسلم إلا أنه اتهم بالزندقة والإلحاد والشعوبية فما الذي حداه لقول ذلك إذ يقول :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجـــار

إبليس من نار وآدم طينـــة والطين لا يرقي رقي النار

فهـــو يصوب رأي إبليس في عدم سجوده لآدم وعصيانه لأمر ربه حـــين طلـــب إليه السجود ، لأن النار في رأي بشار وأضرابه من الزنادقة خير من الأرض " التراب "

فالوقـــوف علي صفات الأديب وتاريخه وسيرته وكل ما يظن أن له تأثيـــر عليه يساعد الناقد علي الوقوف علي خباياه النفسية ، ويساعد علي فهم النص فلا يكون سطحياً أو مقصوراً علي الأفكار والصور فهـــذه المكـــونات للنص إنما هي قائمة أولا علي أسس تربطها نفس الأديب وما يحيط به .

ومـمـــا ينبغـــي توفـــره للناقد أيضاً – معرفة أخلاق الأديب وطباعه فـــأخلاق الـــشاعر وطبيعته يولدان الصراع والاحتكاك بينه وبين ما يقـــبل علـــيه من الخارج حتي تتولد الانفعالات والتجارب الشعرية ولذلك وجب علي الناقد أن يعرفها حتي يستضئ بها علي فهم شعره وما فيه من مضاعفات وجدانية .

كمـــا ينبغـــي للناقد أن يكون ذا علم بالأحداث التاريخية ، ومواقعها وأماكـــنها والاتجاهات السياسية والمذهب الأدبي للأدباء ففي ذلك ما يمهـــد لفهـــم النص وكشفه فينبغي عليه أن يقف أمام أسلوب الشاعر ويكـــشف مـــنه الدوافع التي وجتهه نحو هذا الأسلوب للوقوف علي شخـــصيته فالأســـلوب هـــو الأديـــب ، ويختلف الشعراء في ذلك ، فاللـــشاعر الجاهلـــي أسلوبه وألفاظه ، وللعباسي ألفاظه وأسلوبه –

وللمقبل علي الحياة أسلوبه ، وللرافض للحياة المتشائم أسلوبه ..... الخ

جملة القول : أنه يجب علي الناقد أن يقف علي عناصر شخصية الأديب ممثلة في :

- الزمان الذي يولد فيه
- المكان الذي يشب فيه
- الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي تحيط به
- الأبوان اللذان يولد لهما والجو المنزلي الذي يحيط به ونوع التربية التي يصيبها
- نوع التعليم والعادات والتقاليد والمقاييس المختلفة التي تكتنفه .
- الأشخاص الذين يلقاهم ويؤثرون فيه وفي حياته .

كل هذه عوامل تؤثر في صوغ شخصيته في صورة معينة .

الشروط التي يجب توافرها في الناقد

أدرك نقاد الأدب من العرب أن للأدب ثلاث ملكات :

الملكة الأولي : منتجة تتجلي في الشعراء والكتاب والخطباء .

والثانية : ناقدة تستطيع أن تتبين مواضع الجمال في النصوص الأدبية ، وتدل عليها وتبين أسباب هذا الجمال .

والثالثة : متذوقة تدرك بنفسها،أو بوساطة الناقد ما في النصوص من حسن وتتلذذ بما تدركه من مظاهر هذا الحسن والجمال .

وبهذا ظهر أن نقاد العرب عرفوا للأدب – ملكات ثلاث : منتجة وناقدة ومتذوقة وعرفوا أن الناقد لابد أن يكون ذا طبع موهوب حتي يستطيع أن يبين للناس ما أدركه هو من أسباب هذا الجمال .

–وعرفوا كذلك أن الناقد في حاجة إلي مقدار من الذكاء ، وهو الذي عبر عنه عبد القاهر الجرجاني بحدة القريحة والتهاب الطبع في قوله : (وهذا موضع لا يتبين سره إلا من كان ملتهب الطبع حاد القريحة) [1]

– ولم يقتصر نقاد العرب علي الاعتداد بالطبع والذكاء وحدهما في الناقد ، بل رأوا أنه من الضروري له أن يضيف إلي ذلك ثقافة واسعة لا تقف عند شئ بعينه بل تتطلب الإلمام بجملة من الثقافات .

---

[1] دلائل الأعجاز صـ ٣٤٦

- قـــال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غـــريبه ، فـــرجعت إلـــي الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفـــت علـــي أبي عبيدة ، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب[1] فمعـــرفة الغـــريب وحدها لا تكفي وكذلك لا يكفي معرفة الإعراب والأيـــام والأنساب بل لابد من ثقافة شاملة ، ولذلك كان أدباء الكتاب ذوو الثقافة الواسعة هم أهل العلم بالشعر وأحق الناس بتقديره ونقده في رأي الجاحظ

- وإذا كـــان الأديب المنتج في حاجة قصوي إلي الرواية ، ومعرفة اللغة ، فالناقد كذلك في حاجة إليهما كي لا يخطئ في معرفة الكلمة التـــي نطـــق بهـــا الـــشاعر وحينـــئذ يكـــون نقده صحيحاً لا خطأ فـــيه ، والـــشعر فـــيه الأسماء الغريبة واللغات المختلفة ، والكلام الوحـــشي ، وأســـماء الشجر والنبات والمواضع والمياه ولذا اشتدت الحاجة بالناقد إلي الرواية .

- والـــناقد فـــي حاجة إلي مخالطة الأدب وكثرة مدارسته لأن ذلك يعيـــنه علي العلم بالأدب وتقويم الشعر ، حتي يصبح بصيراً بأموره مدركاً للفروق بين الجيد والأجود ، وبين القوي والضعيف ، مثله في ذلـــك مثل أصحاب الصناعات الأخري ، فأنهم في حاجة ماسة إلي

---

[1] العمدة : ابن رشيق جـــ٢ صـــ ٨٤

مخالطـــة موضوع صناعتهم ، حتي يصبحوا أهلا للحكم ، ويصبح قولهم حجة فيما يحكمون عليه .

– ولا يـــسمح نقاد العرب لمن لم تكن عنده هذه الصفات أن يصدر حكماً أو أن يكون لحكمه قيمة عند الناس .

قـــال قائل لخلف الأحمر [1] إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته ، فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك ، قال له خلف إذا أخذت أنت درهماً فاستحـــسنته ، فقـــال لـــك الـــصراف : إنـــه ردئ ، هـــل يـــنفعك استحسانك له ؟

– وهكـــذا نري أن نقاد العرب رأوا أن النقد طبع لا بد منه للناقد ، وذكـــاء يـــستطيع به أن يحلل العمل الأدبي ، وثقافة تمد هذا الذكاء بأسباب الحكم ، ومخالطة للنصوص الأدبية يستطيع بعدها أن يضع كـــل نـــص في مكانه من مراتب الجودة والإبداع . وهم في ذلك لا يكـــادون يخـــتلفون في النظرة عن نقاد العصر الحديث ، مع دعوة المحدثين إلي توسيع الثقافة وإلحاحهم علي ذلك .

– ويتـــضح من العرض السابق أن الناقد الناجح الهادف بنقده ينبغي أن يتحلي بعدة شروط منها :

١– الطبع الموهوب والملكة الفطرية .

٢– حدة الذكاء وقوة البصيرة ونفاذها .

---

[1] أحد الموالي حفظ الكثير من أدب الجاهلية ، وكان قديراً علي تمييز الأشعار .

٣- سلامة الذوق ، ورهافة الحس .

٤- سعة الثقافة والإلمام بشتي الفنون والآداب والثقافات .

٥- العكوف علي مخالطة الآداب ومدارستها .

٦- التجـــرد من استبداد الهوي الشخصي والميل الذاتي فلا يتعصب لمذهب بعينه ولا لأديب بعينه ولا لعصر بعينه .

٧- صفاء النفس ، وهدوء الطبع واعتدال المزاج .

بهذه الشروط يستطيع الناقد إصدار الأحكام الصائبة الجديرة بالتقدير والاعتبار .

صلة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية

العلوم الإنسانية هي ما كان موضوعها متعلقاً بالإنسان وعلاقته هي الحياة من حيث التأثر بها أو التأثير فيها .

ووظيفة هذه العلوم تفسير الظواهر العامة التي تتصل بالإنسان اتصالا مباشراً أو غير مباشر .

والأدب ظاهرة خاصة بالإنسان فهو تعبيره الذي يصور به الحياة والطبيعة والنفس وما فيها من مشاعر وأحاسيس .

- ولما كان الأدب موضوع النقد الأدبي كانت الصلة إذن وثيقة بين العلوم الإنسانية والنقد الأدبي .

ولكي يكون النقد دقيقاً وموضوعياً وواعياً فلا مفر للناقد من النظر الدقيق في علم النفس والاجتماع والتاريخ والأخلاق والجمال ، وما يمكن أن يكون من العلوم التي تتعلق بالإنسان أو نزعاته ، وقد أسهمت هذه العلوم في التعرف البصير علي السمات الفنية في العمل الأدبي وربطها بأصولها الكامنة في نفس الأديب وذلك لتتحقق دقة التفسير علي أصول من مراعاة الصلة بين الأدب وصاحبه ، وهذا الربط يحقق للناقد التأكد من أصالة الفن وصدقه ، فيحدث بذلك الإقناع والاقتناع وعلي الناقد الأدبي أن يتخذ من ذوقه الأدبي له رائدا في تحديد مدي الاستعانة بهذه العلوم حتي لا يخرج الناقد عن نطاق مهمته إلي التقعيد والتقنين وهما لا يتفقان وطبيعة النقد الأدبي.

أولاً : الدراسات النفسية " علم النفس "

لقد استفاد النقد الأدبي من الدراسات النفسية في :

أ) البحث في علمية الإبداع والخلق الأدبي وكيف تتم ، وكشف عنه من مقدار حيوية الشعور ومدي وضوح الرؤية ومعايير الاتزان النفسي الفردي والجماعي ، ..... ، .... ، ..... فباستعمال هذه الأشياء يمكن تمييز بعض الأعمال الأدبية عن بعض .

ب) التعرف علي شخصية الأديب وتحديد معالمها علي ضوء الدراسات التي يقوم الناقد بتطبيقها علي الأديب والتعرف علي صدي الأحداث الخارجية علي نفسه ومن خلال معرفة الناقد بشخصية الأديب فإنه يربط بينه وبين آثاره .

– فالدراسة النفسية (لصاحب الانتاج علي هدي النظريات العامة لعلم النفس ترشدنا إلي النزعات التي تتجاذب نفس الأديب وتهدينا إلي خلجاته العاطفية وقد تفتح آذاننا للهمس الذي يدور في خاطره ويجمجم في وجدانه ، وبهذا تكون علي حافة النبع بحيث نسمع جولان الماء في المسارب الخفية ، ونبصر انسيابه في تجاويفه الدقيقة حتي إذا انبجس النبع وتحدر ماؤه عرفنا عذوبته إن كان عذبا وعلة كدرته إن لم يستسغه الذوق أو انصرف عنه الوارد [1]

---

[1] معالم النقد الأدبي – عبد الرحمن عثمان صـ ٣٩ بتصرف

- والدراسة النفسية بجانب التذوق يمكن أن ترجع لنا الأعمال الأدبية إلي حوافزها الدقيقة في نفس الأديب .

- ثم إن الأدب انفعال نفسي ، ومن خلال عرض أشعار الشاعر مثلاً يمكـــن عرض صورة لحال المشاهد والانفعالات والعواطف عنده ، بـــل إن العاطفـــة تـــنمو وتعمق كلما ازدادت التجربة وكثرت الألفة واشتدت الصلة بين النفس ومصدر الانفعال [1]

---

[1] خلاصة علم النفس - الأهوالي صـــ ٤٠

ثانياً : الدراسات الاجتماعية " علم الاجتماع "

أمـــا صـــلة الدراسات الاجتماعية بالنقد ، فإنها تمد الناقد بما ينير له الطـــريق ويقـــف به علي كثير من المؤثرات التي من خلالها تتضح الـــصلة بـــين الأديب والمجتمع ، فالناقد قد يبحث عن البيئة العامة والخاصـــة للأديـــب ، وبتعبير آخر النشأة والنظم المختلفة والتربية والـــثقافة والعـــادات والتقاليد والصحافة وسائر الظروف الاجتماعية التـــي تؤثـــر علـــي الأديـــب فـــتوجه أدبه نحو نوع بعينه أو لون خاص ..... الخ .

– ومـــن الملحوظ أن طبقات المجتمع تميل كل منها إلي نوع معين مـــن الأدب فالطـــبقة العلـــيا تميل دائما إلي أدب الصفوة والأبراج العاجـــية ، في حين تميل الطبقة الوسطي " المتسلقة – البرجوازية " إلي أدب يمثل المجتمع بما فيه من عادات .

وفـــي الأزمـــات والقهـــر الـــسياسي يعلو صوت الأدب الرمزي ، والإســـقاط والتكنـــية وعدم التصريح ، وهكذا نجد أن النقد له صلة وطيدة بالاجتماع فبه يقف الناقد علي تقاليد وعادات وسائر المعطيات الاجتماعية التي تقف خلف العمل الأدبي وصاحبه .

ثالثاً : الدراسات الجمالية " علم الجمال "

وفـــي مجـــال صـــلة النقد الأدبي بعلم الجمال ذكر الدكتور / محمد الـــسعدي فـــرهود مـــا يفيده النقد من الدراسات الجمالية قائلاً : لقد أسهمت الدراسات الجمالية في توجيه النقد إلي :

- استحـــضار معنـــي الجمال في كل فن ، والجمال في الأدب يعني ويقـــضي أشياء كثيرة منها : الأصالة والصدق والبعد بالأدب والفن عن الزيف والكذب والتصنيع .

- حـــرية الأدب الـــذي هو نتاج الأديب ، و الأديب حر في وجدانه وطـــبعه ومواهبه وحرية الفن ،و حرية الأدب والفن حرية مطلقة ، إنهـــا الحـــرية التي تمثل الجمال في هذا المجال ، الحرية المقرونة بـــالأوزان والقوانين التي بدونها تكون الفوضي التي لا يعرفها الفن تتمثل في الوزن القافية والاختيار والمشيئة وحرية الخيال والانسجام بين هذه العناصر .

كمـــا أســـهمت الدراســـات الجمالية في تغذية الذوق السليم وتنميته وتلوينه بمعارف قد يفيد منها الناقد في تربية ذوقه وصقله .

- ومـــع كون هذه المعارف كثيرة ومبهمة ومتغيرة إلا أنه لا يخفي ثاقب البصر الاستفادة منها، ولكن يجدر بالناقد أن ينتبه إلي ما يلي :

أ- أن يقـــنع فـــي تحقـــيق غايته النقدية بهذا القدر الذي يعينه علي التفـــسير والشرح من العلوم الإنسانية ، أي أنه يأخذ منه بقدر حاجته

إلـــي التفـــسيرات التي يلجأ في هذه العلوم للكشف عنها في الأعمال الأدبـــية وجوانب الفن ، ويستخدم من هذه العلوم بمقدار ما يستشفه الـــناقد فـــي العمل المنقود من صلة بهذه الحياة وبمقدار لا ينقله من جمال النقد إلي مجال العلم . فبعض هذه العلوم متطور لا يقف عند غايـــة وبعـــضها متغير يعتريه التبديل من حين إلي حين فهي ليست وســـائل دائمـــة أو مؤكدة من وسائل التفسير أو الاستدلال فلا تؤخذ منها إلا بمقدار .

– والنقد فن جمالي يعمل علي تقويم الأدب وإصلاح ما فيه من خلل ، والسير بالأدب قدماً إلي الأمام وهذا الفن الجمالي مرتبط بالأذواق والاحساسات اللذين يختلفان باختلاف الزمان والمكان والبيئة ، ومن هذا المنطلق بقي أن نسأل سؤالاً وهو :

هل يمكن تقنين النقد الأدبي ؟

– لما كان النقد فن جمالي مرتبط بالذوق ، والذوق يختلف من زمان لـــزمان ومـــن مكان إلي مكان ، عارض كثير من النقاد واعترضوا علي وضع قواعد للنقد الأدبي وذلك لأن :

الـــنقد مرجعه إلي الذوق ، والذوق يصعب تعليله لاختلاف الأذواق تـــبعاً لاختلاف البيئات والثقافات والأزمنة . بل قد يتعدد الذوق في المكان الواحد والبيئة الواحدة رقياً وانحطاطاً .

- الأدب فـــن واسع المجال وهو موضوع وحقل النقد الأدبي ، وهـ الحقل متعدد الأجناس فكيف تكون له قواعد محددة .

- رفعـــة الأدب تأتـــي من جراء ابتكاره ، وكيف أبدع فيه صاحبه وتمخضت تجربته عن خلق جديد ، فكيف تطبق عليه قواعد كانت قد طبقت علي أدب أقل منه جودة ؟ أو قواعد تصلح لعصر دون لعصر الذي قيل فيه ؟ فلو وضعت للنقد قواعد لكانت بمنزله القيد الذي يكبل عملـــية الـــتطور والابـــتكار وهذا لا يتمشى مع الأدب ، لأن الأدب خاضـــع للعبقرية الشخصية والنبوغ ، وهذه لا شك أمور تختلف من أديب لآخر .

- الأدب تعبير عن الشخصية ، فقد يقرأ الشخص هذا الأدب أو ذاك فيتذوقه ويأنس به ويتمتع به علي عكس آخر ، فكيف ننقل الذوق من شخص لآخر إذن كيف تكون للنقد قواعد ؟ !

- ظهر إذن أنه لا يمكن تقنين النقد ، أما ما جاء من أحكام قريبة من بعـــضها وقريبة من التقنين قالها هذا الناقد أو ذاك فإنما هي متقاربة تكـــاد تكون متفق عليها وليست من قبل القوانين ، وهذه الأحكام لا تؤثـــر فـــيها اخـــتلاف البيـــئات والأذواق كالـــصدق والقـــوة والعاطفة ..... إلخ .

الفصل الثالث

الـــــذوق الأدبـــــــي

الـــذوق هـــو المرجع النهائي في كل نقد ، وهو في مفهومه الحسي الأول عـــلاج الأشياء باللسان للتعرف علي طعومها ، ثم استخدمت الكلمـــة فـــي عـــلاج الأشياء بالنفس لمعرفة خواصها من الجودة أو الرداءة .

وإنمـــا يأتـــي خطـــر تحكيم الذوق عندما نتخذه ستاراً لعمل الأهواء التحكمـــية التـــي لا تصدر في أحكامها عن نظر في العناصر الفنية وإحـــساس صادق بما فيها من جمال أو قبح ، أو عندما يكون ذوقاً غفلا لم تجتمع فيه الدربة إلي الطبع .

– والـــذوق الـــذي يعـــتد به هو ذوق ذوي البصر بالشعر وهؤلاء يـــستطيعون عـــادة أن يعللـــوا الكثير من أحكامهم ، وفي التعليل ما يجعلها وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة .[١]

– فالـــذوق إذن قـــوة يقـــدر بها الأثر الفني ، أو هو ذلك الاستعداد الفطـــري المكتـــسب الذي يقدر به علي تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته بقدر ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا .[٢]

---

[١] النقد المنهجي عند العرب / محمد مندور صـــ ١٠٢ ط نهضة مصر

[٢] في علم النفس ٣ / ٣٤٧ حامد عبد القادر نقلا عن كتاب أصول النقد الأدبـــــي صـــ ١٢٠ .

يقــول ابــن سلام الجمحي " للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كــسائر أصناف العلم والصناعات " ويؤكد ابن سلام علي ضرورة المران والدربة في تكوين الذوق فيقول : " إن كثرة المدارسة لتعدي إلي العلم " وهذا معناه أن الحكم الأدبي مرجعه إلي الذوق وأعني به ذوق الــناقد الخبير بأساليب الكلام ، البصير بما تحمله هذه الأساليب مــن معــان وأخيلة .... إلخ وقد فطن نقاد العرب القدامى إلي ذلك حتــى يقــول الآمدي صاحب " الموازنة " " لن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ومن إذا علم أنصف .[1]

ومــن الجدير بالذكر أن ننبه إلي ما ذكره الأستاذ / أحمد ضيف في بلاغة العرب من أنه لا يصح أن يبني النقد علي الأذواق الخاصة ، لأن النقد استحسان ما يحبه الإنسان ويميل إليه وهذا غير ما يراد من الــنقد ، إذ النقد الصحيح تحليل فكر شخص آخر غير القارئ نفسه واندماج الإنسان في نفس غيره ليفهمه بفكره ، ويدرك عقله بعقله ، والذوق تحليل نفس القارئ وفكره لمناسبة ما يقرأ أو بسبب ما يجده هــو نفــسه من كلام غيره ، إذ شعور القارئ بسروره ورضاه عمًا يقــرأ هو في الحقيقة ناشئ من أنه وجد ما يحبه ويميل إليه ، وذلك شئ من خواص نفسه ، وميولها الذاتية فكأنه إنما وجد فيما يقرأ نفسه لا نفــس الكاتــب ، وأعجب بميوله وآرائه لا بميول الكاتب وآرائه

---

[1] الموازنة من صـ ١٧٦ : ١٨٠

إنـــه وجـــد إنساناً آخر صور نفسه بالصورة التي هي عليها ووجد أفكاره يعبر عنها فهو إذا فهم ذلك فهم نفسه .[١]

والـــذوق الأدبي : ملكة ليست إلا مزيجاً من العاطفة والعقل والحس وعلـــي قدر قوة هذه العناصر ودرجة كل منها يحدث الاختلاف في الأثر المنقود ، فمن قوى عنده عنصر الحس وجدته جياشاً يفضل من الأســـاليب ما يتناسب مع حسه كأسلوب البحتري مثلاً ، ومن غلب عليه عنصر العقل فضل ما عند أبى تمام والمتنبي والمعري ، ومن غلـــبت عـــنده العاطفة فضل ما يناسبها من شعر الحماسة والعتاب وهكذا .

إذن فقـــد اتفق ابن سلام مع غيره من النقاد علي أن الذوق المرجع والمـــلاذ ، إذ يقرر أنه في الأدب لا يمكن أن يحل شئ محل التذوق وكذلك ذهب الآمدي في الموازنة إلي أن مرجع الأمر في الأدب إلي الذوق فإذا سألت الناقد عن علة رأيه في شعر ما فإنه لا يستطيع أن يأتـــيك بعلـــة قاطعـــة ولا حجـــة باهرة ، وتابعهما في هذا القاضي الجرجاني في كتابه " الوساطة " فإنه يرى أيضاً أن الذوق هو مرد الحكم في الأدب وأنه يكتسب بصحة الطبع وإدمان الرياضة .

وكـــذلك ذهـــب ابن طباطبا العلوي في كتابه " عيار الشعر " إلي أن الذوق إذا استحسن أو استهجن فلأسباب في نفس الكلام والشعر .

---

[١] مقدمة لدراسة بلاغة العرب – أحمد ضيف صـــ ٩٢ .

- وهـذا هـو رأي المرزوقـي أيـضاً الذي يقرر في شرحه علي الحماسة أن الطبع والذوق السليم هو الفيصل فإذا سئل الناقد الحاذق عن علة رأيه في شئ من الأدب لم يمكنه الجواب إلا أن يقول هكذا قضية طبعي .

- ومـثل ذلـك ما قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني إذ يرى أن النقد الأدبـي يجـب أن يكون فناً طليقا لا يخضع إلا لحكم الذوق الأدبي السليم والملكات الفنية .

والذوق الأدبي أقسام :

فمنه الحسن أو السليم أو الصحيح ، كلها مسميات لشيء واحد وهذا الـذوق هو الصادق في أحكامه البالغ دقته الذي يحسن التفريق بين الأنواع ، وعكسه السقيم أو الفاسد وكذلك منه السلبي والإيجابي .

- والفـرق بينهما أن السلبي هو الذي يتذوق الأدب دون القدرة علي تعليله

- أمـا الإيجابي فهو الذي يدرك الجمال ويفرقه من الدمامة ثم يعبر عن ذلك مبيناً مواطنه

وباخـتلاف الذوق تختلف أحكام النقد اختلافا بيناً ، وبالمثال يتضح المقال :

قال بشار في قصيدة له :

بكراً صاحبي قبل الهجيـر إن ذاك النجاح في التبكير

فقـــال له خلف الأحمر : لو قلت يا أبا معاذ " بكراً فالنجاح " مكان إن ذاك الـــنجاح " لكـــان أفضل ، فأجاب بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت ما قلت ، كما يقول الأعراب والبدويون ولو قلت " بكر فالـــنجاح " لكـــان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل إلي معني القصيدة .

- ومـــثال ذلـــك أيضا ما قاله شاعر الأطلال " إبراهيم ناجي " في قصيدته " قلب راقصة " :

أمسيت أشكو الضيق والأينا مستغرقاً في الفكر والسأم

فمضيت لا أدري إلي أينـــا ومشيت حيث تجرني قدمي

- فقـــد أعجـــب بهذه الأبيات الناقد عبد اللطيف السحرتي حتي قال عـــنها إنهـــا مـــن مفاخر الشعر العصري ، إنها شعر بديع للسآمان المتحير الذي تجره قدمه لشرود عقله حتي تصبح قدمه هي المسيرة له .

- وقـــال عـــنها أحمد ذكي أبو شادي : هذه القصيدة تتميز بالروح الإنساني الرفاف .

- أمـــا الدكـــتور طه حسين ، فلم ترقه القصيدة ولم تعجبه حتي قال عـــنها : إنهـــا من الكلام المألوف الذي شبع منه الناس ، ثم يبين أن أسلوب الشاعر في قوله " تجرني قدمي " غير موفق لأن الإنسان هو الذي يجر قدمه ، ولا تجره قدمه .

- وتابـــع عبد الوهاب حمودة من النقاد الدكتور طه حسين في نقده ذلك وقال " إن أول ما يصادفك من هذه الألفاظ الابتذال والسوقية ثم انظـــر إلي هذه الصورة التي لا تلائم شعرا ولا لغة ، فالقدم لا تجر صاحبها إنما تحمله ، وإنما يجر صاحب القدم قدمه ..... الخ

- ولكـــن السحرتي دافع عن هذه الصورة وهذه الأبيات بقوله " إنها صـــورة جمـــيلة لا يـــبلغها شاعر عادي ولا إنسان مهما أوتي من البلاغة أن يركب هذه الصورة .

- إذن يختلف الذوق بين النقاد تبعاً لأشياء كثيرة .

- **والذوق منه ما هو عام وما هو خاص**

<u>فالعام</u> : ذوق فنـــي يشترك فيه أبناء الجيل الواحد في البيئة الواحدة وفـــي الـــبلد الواحد لأنهم يتأثرون بظروف مشتركة تطبعهم جميعاً بطابع عام يجمعهم ويؤلف بينهم .

<u>والخاص</u> : ذوق فنـــي يتأثر بهذا الذوق " العام " ولكنه مع ذلك يتأثر بالشخصية الفردية .

ومن أهم العوامل التي تؤثر في الذوق الأدبي وتطبعه بطابع خاص :

<u>١) البيئة</u> : البيـــئة وما تتكون فيه من الخواص الطبيعة والاجتماعية التي توجد في مكان ما فإنها تؤثر فيه آثاراً حسية .

فإذا تغيرت البيئة تغير معها الذوق منشئاً أو ناقداً .

فزهير بدوي خالص وشعره صورة البداوة لفظاً ومعني وخيالا ، أما الأعشي فقد تحضر ولان شعره وقال في اللهو والخمر مما يلائم ذوق الحضر الذين تأثروا بالثقافات والحضارات المختلفة .

- واختلاف البيئات يتبعه اختلاف في الأذواق ، فبينما تجد الرقة والسلاسة عند شعراء الحضر إذ بك تجد الجزالة والخشونة عند شعراء البدو .

يوضح ذلك قصة علي بن الجهم حينما دخل علي الخليفة المتوكل وكان علي قادماً من البادية فمدح الخليفة بقوله " أنت كالكلب ..... [1] ومر عليه عام في بغداد وخالط أهل الحضر ثم بعد عام من حياته فيها جاء إلي الخليفة ينشده :

عيون المها بين الرصافة فالجسر

جلبن الهوي من حيث أدري ولا أدري

وهو مثال يوضح أثر البيئة في الذوق الأدبي .

٢) الزمان

والمقصود بهذا العامل مجموعة من العوامل التي تتوفر لجماعة أو لشعب في فترة من الزمان ولا شك أن هذه العوامل في الجاهلية غيرها في الإسلام ، كما تتسم بسمات مختلفة في كل عصر حسب اختلاف الأزمنة ، كما يتكاثر بالاتصال بالأمم الأجنبية التي يتصل

---

[1] شبه الخليفة بالكلب وقصد من التشبيه الوفاء ، إلا أنه تشبيه معيب

بهـــا عن طريق ثقافتها ، ومن هنا يكون الذوق الأدبي حلقة تاريخية تصور خلاصة الجهود الثقافية والتهذيبية لعصر من عصور التاريخ الأدبي .

٣) الجنس

إذا اجـــتمع العاملان السابقان " المكان ، والزمان " في جماعة معينة فـــإنهم يصيرون علي طول الزمن جنساً واحداً ، ولكل جنس طابعه فـــي الـــذوق الأدبـــي ، يقوم علي الخواص المعنوية والجنسية لهذا الأســـلوب ، وقـــد لوحظ من مظاهر ذلك ميل (اللاتينيين) إلي رقة الأســـلوب وجمالـــه ، وإلـــي حرية الأداء وروعة الخيال وذلك في الآداب الفرنـــسية والإيطالـــية ، ثـــم ميل غيرهم إلي الجزالة والقوة والاتجـــاه نحو التجديد ، وذلك واضح في الأدب العربي لما تناولته الاجـــناس المخـــتلفة فظهرت فيه طبائعها المختلفة وأذواقها المتباينة إنـــشاء ونقـــداً ، كما ظهر الذوق الفارسي في بشار بن برد ، وأبي نواس ، وابن المقفع ، وسواهم

٤) التربية :

وهـــي النشأة وسط الأسرة ، وما يتشربه ويتشبع به الناقد من البيئة الخاصـــة المحيطة به كالأسرة التي عاش في كنفها ، والتعليم الذي تلقاه ولهذا أثره في طبع الذوق الأدبي بطابع خاص .

كمـــا يـــتدخل فـــي ذلك كل ما يكتسبه الناقد من الأخلاق والفضائل والخـــلال ، ثم اختلاف الأمزجة وهي " مجموعة الآثار التي تحدثها في الحياة العقلية التغيرات الغذائية والكيماوية التي تحدثها باستمرار في أنسجة الجسم "

- ومـــن الأمزجة ما هو دموي ، وما هو سوداوي ، كما تدخل في ذلـــك المجـــال أيـــضا المجالات النفسية التي تستأثر ببعض النفوس فهناك الزاهد ، وذاك الصوفي ، وذاك الحليم ، إلي غير ذلك ، ولكل واحد من هؤلاء ذوق خاص .

<u>والسؤال : كيف يتكون الذوق الأدبي السليم ؟</u>

والإجابة علي هذا السؤال تكون كالآتي :

الذوق الأدبي لا يمكن خلقه في نفوس لم تمنح تلك الهبة من أساسها ولكـــن لابد من أساس لذلك الذوق وتلك الهبة في النفس حتي يمكن بالممارســـة والمعايشة للألوان الأدبية من شعر أو نثر أن تنمو هذه الملكة .

وأما ملكة النقد فإنه يمكن اكتسابها بطول الممارسة والمران والمثابرة والتطبـــيق بجانب كل ما سبق من العوامل الأخري ، والنقد الأدبي يتكئ علي الذوق بالإضافة إلي قوانينه الأخري ، ومن هنا نقول ، إن الدارســـة الأدبـــية عـــند الموهوبين لها أثرها في توليد الثمرة حتي الوصول إلي درجة النبوغ والعبقرية "

ولتـــربية الحاســـة الأدبية النقدية عند الإنسان لابد من طرق ينبغي الإلمام بها منها :

* الإلمام بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وعروض وغير ذلك مما يمكن معه استكشاف ما في النص من مظاهر الجمال التي تنتمي إلي أصول عربية ، ومدي تحقيق هذه المظاهر وتلك القواعد .

وهـــذه هي النقطة الأولي التي يمكن للإنسان الناقد بعدها من التعامل مـــع الأدب شـــعره ونثـــره مـــع طول الممارسة والإدمان والصبر والنظر الثاقب إلي اللفظة والصياغة " الأسلوب " والفكرة ، وكل ما يـــتعلق بـــالفن الشعري والنثري من جماليات ، والسير في ذلك إلي نهايـــة الشوط ، مع مراعاة كل الممكنات في كل الاتجاهات التي لا تـــصطدم بالفكرة ، وفي ذلك ما يجدي وما يجعل من كل حاسة في الـــناقد قلـــباً ولـــساناً ، كما أن في التربية ما يعمل علي رقي الذوق الأدبـــي وطبعه في المرء علي أحسن حال ، وفيها ما يساعدهم علي القدرة علي التعليل لفهم الأدب من صفات البراعة والحسن .

* كما يفيد في تكوين الذوق الأدبي ما ذكره الأستاذ أحمد الشايب فيَ كـــتابه " أصول النقد الأدبي " من أن تكوين الذوق الأدبي السليم يتم بوسيلتين :

أولهما : هي تجنب الردئ من الأدب والمشاهد والنوادي والأشخاص والبيـــئات ، حتـــي لا يصاب الذوق من جراء ذلك بالرداءة أو بشئ منها وهذا عامل سلبي

أما الوسيلة الثانية : فتشمل مجموعة العوامل التي يلجأ إليها الإنسان لتنمـــية الذوق وتعهده ليكون صادق الإدراك مرهف الحس ، مستقيم الحكم ، وهذه الوسيلة تتخذ مظهرين :

أ) **عام :** وهو الاتصال بالفنون الرفيعة من الأدب والمشاهد والفنون والـــناس والطـــباع الحـــسنة والفعـــال الاجتماعية والخلقية والثقافية الصحيحة والتكامل بين كل هذه الأمور ينتج فهماً وتذوقاً .

ب) **خاص :** وهو الامتزاج بالنماذج الرائعة من الأدب شعره ونثره قراءة وفهماً وتحليلاً ووقوفاً علي الصلات بين عناصر العمل الأدبي وتبيـــين كل ما فيه من صفات وأسباب القوة والجمال ، وتفهم روح الأديـــب وشخصه وعقله ليفيد القارئ من جمال ذلك وصفائه وذوقه مـــن بسط وتطويل مناسبين من حياة الأديب حتي يتم فهم العمل من كل جوانبه .

– فالـــذوق إذن وسيلة لتهذيب النقد ، وهو معين ومساعد علي كثير من المميزات ، وبمداومة ذلك يصل الناقد إلي درجة عالية من الذوق ومن هنا تتكون مقاييس صادقة للجمال والتحليل والنقد السليم .

– وبجانـــب قـــيمة النقد من الناحية السابقة ، فإنه يساعد علي جمال التفسير والتعبير والاقتراح واختيار النصوص الأدبية الجميلة وتقدير الآثـــار الفنـــية والاستمتاع بما في الكون من جمال وتناسق وانسجام تراه عند الذواقة ، ومحاكاة ذلك في الأفكار والأعمال . [1]

---

[1] انظر أصول النقد الأدبي . صـــ١٤٣ بتصرف .

الفصل الرابع :

النقد عند العرب الجاهليين

تشبه نشأة النقد عند العرب نشأته عند اليونان ، فقد نشأ – في الأعم الأكثر – بين الشعراء ، وظل علي ذلك حقباً متطاولة ، حتي وضعت علوم العربية ، فوضعت معها قواعده وأصوله ، ونستطيع أن نلاحظ مقدماته الأولي في صناعة الشعر الجاهلي إذ كان يحتفل بنظم شعره احتفالاً شديداً ، حتي يرضي الجمهور الذي يستمع إليه حين إنشاده ، ولم يكن يكتفي بجمهور قبيلته وما ينثره عليه من كلمات الثناء والإعجاب ، فقد أمتد بصره إلي أفق أوسع وجمهور أكثر وشهرة أكبر ، فقصد الأسواق ، وتنقل في القبائل .

وفي أخبار الأعشي أنه كان ينشد شعره علي آله موسيقية هي الصنج وكان يطوف بها بين أحياء العرب ، وكانت الأحياء وشيوخها يحتفلون به ويقبلون عليه لسماعه ويهيئون له الهدايا والصلات ، ولا نرتاب في أن من كانوا يستمعون إليه كانوا يستعيدون – في حضرته – ما ينشده مراراً ، وأنهم كانوا – إذا رحل – يتحدثون عنه وعن شعره ، فيتعصب بعضهم له ، ويتعصب بعضهم عليه مؤثراً ومفضلاً شعراء قبيلته ، وكذلك كان شأنهم في الأسواق حين يستمعون إلي ما ينشد الشعراء ، فيظهر فريق منهم إعجاباً ، ويظهر فريق سخرية واستخفافاً .

ولعـــل هـــذه هـــي أول صـــورة لتقدير الجماهير للأدب وتقويمه ، وبروزها في العصر الجاهلي يدل علي رقي الذوق حينئذ ، وقد اندفع الشاعر يحاول إرضاء هذا الذوق وأن يقع منه موقع استحسان .

وربمـــا كان ذلك السبب الحقيقي في وقوفه بشعره عند موضوعات بعينها ، بل عند معان وألفاظ بعينها حتي ليقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا ، أو معاداً من لفظنا مكرورا

فهو مقيد بأسلوب فني يتبعه ويقلده ، وهو لا يستطيع أن ينحرف عنه فلابـــد لـــه حين ينظم قصيدة أو مطولة من أن يستهلها بالبكاء علي الديار والأطلال ، ثم يتحدث عن رحلته في الصحراء ويصف أثناء ذلـــك ناقـــته ، ثم يخرج إلي غرضه من مديح وغير مديح وهو لا يصنع ذلك حراً ، فلابد له من التمسك بالمعاني والصيغ الثابتة التي يـــدور فـــيها الشعراء من قبله ومن حوله حتي لا ينصرف جمهور السامعين عنه ، وحتي يبلغ من التأثير فيهم ما يريد . [1]

كـــذلك كـــان الـــشاعر الجاهلي يحاول أن يوفر في شعره كثيراً مِن " القـــيم الصوتية والتصويرية وكان يلقي عناءً شديداً في هذا التوفير إذ نـــراه يتقيد بقيود كثيرة ، لا تقف عند الموسيقي والتصوير ، بل تـــتعدي ذلك إلي الموضوعات والألفاظ والمعاني ، وقد عبر عن هذا الجانب في أشعاره "

---

[1] النقد / شوقي ضيف صـــ٢١ ط دار المعارف ط الخامسة

يقول أمرؤ القيس :

عوجا علي الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكي ابن خذام[١]

وقول زهير السابق : ما أرانا نقول إلا معارا ،

ويقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم [٢]

وما يقوله امرؤ القيس من أنه يريد أنه يبكي كما بكي ابن خذام ، وما يقوله زهير من أن الشعراء يبدئون ويعيدون في ألفاظهم ، وما يقوله عنترة من أن نهج الشعراء في قصائدهم مطرد علي وتيرة واحدة ، كل ذلك دليل علي أن الشاعر القديم كان يأخذ فنه بقيود ورسوم كثيرة في اللفظ والموضوع والنهج العام .

ومن يرجع إلي القصائد الجاهلية الطويلة ويترك المقطعات القصيرة يلاحظ في وضوح وجلاء أنها تأخذ نمطاً معيناً في التعبير والأداء ، وكأنما العصر الجاهلي نفسه هو الذي أعد " للقصيدة التقليدية " عند العرب قصيدة المدح والهجاء ، فإن الشعراء كانوا يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي علي أسلوب موروث فيها، إذ نراها تبتدأ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدمن ، ثم تنتقل إلي

---

(١) عوجا : اعطفا . المحيل :الذي أتي عليه حول . ابن خذام : شاعر قديم يقال أنه بكي الديار قبل امرئ القيس .

(٢) أي لم يترك الشعراء شيئاً إلا ترنموا به وتغنوا به .

وصـــف رحـــلات الشاعر في الصحراء ، وحينئذ يصف ناقته التي تملئ حسه ونفسه وصفاً دقيقاً ثم يخرج من هذا الموضوع المعين إلي مدح وهجاء أو غيرهما ، واستقرت تلك " الطريقة التقليدية في الشعر العربي ، وثبتت أصولها في قصائده الطوال علي مر العصور " .

وهذا النمط المعين في صنع المطولات القديمة يدل دلالة قاطعة علي أن صناعة الشعر استوي لها حينذاك غير قليل من القيود والتقاليد ، إذ نـــري القصائد تتحد أنغامها ، وكان عنترة يشكو هذا الاتحاد كما تتحد أساليبها ولغتها وتراكيبها وكما تتحد معانيها وصورها وأخيلتها وكـــان زهيـــر يشكو أيضاً من ذلك ، فما يقول ابن خذام يأخذه عنه أمرؤ القيس ، وما يقوله أمرؤ القيس يأخذه عنه بقية الشعراء ، وإن جد معني في الطريق كوصف الأطلال عند طرفة بن العبد بالوشم[١] أخذه زهير [٢] وغير زهير .

وقـــد تتـــبع النقاد العباسيون هذا الجانب من صناعة الشعر العربي القـــديم ، وهـــو جانب طريف يكشف لنا عن حقيقة الشعر الجاهلي وحقيقة صناعته ، وأنها لم تكن مستوعباً للتجارب الفردية ، بل كانت مقـــيدة بمصطلحات كثيرة لا في اللغة والنحو والعروض فقط بل في

---

[١] يقول طرفه في مطلع معلقته :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

[٢] يقول زهير في معلقته :

ودار لها بالرقمتين كأنها مراجع وشم في نواشر معصم

الموضوع والمواد التي تكونه ، وما يختاره الشاعر في صنع نماذجه من أدوات تصويرية أو أسلوبية أو معنوية .

كل ما سبق يدل دلالة قاطعة علي أن الشعر الجاهلي قد قطع أشواطاً بعيدة وأزمنة طويلة بين المحو والإثبات والاعوجاج والاستقامة حتى بلغ هذه الدرجة من النضج والكمال والاستواء الفني والتكرار وأخذ هذا عن ذاك وزاد هذا علي ذاك .

كما يدل علي أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات القليلة يقدمها الرجل بين يدي حاجته ثم زادت شيئاً فشيئاً تبعاً لسنن الكون في التدرج والانتقال والتطور حتى صارت مقطوعات ثم قصائد طويلة .

- ويقال إن أول من قصد القصائد وذكر الوقائع هو " المهلهل بن ربيعة التغلبي " في قتل أخيه " كليب وائل " ، حين قتله بنو شيبان حيث يقول الجاحظ " (أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه : أمرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة) .

- بيد أن هذا الكلام من رأي الجاحظ يحتاج إلي روية وتمهل في قبوله بل قد لا نوافقه علي ذلك . إذ تقدم في الكلام السابق أن امرأ القيس أخذ عن ابن خذام ، وأن عنترة يشكو من الشعراء قبله الذين أتوا علي كل المعاني فطرقوها ولم يتركوا لها معني يترنم به ويتغني

، وأن زهيرا يشكو من تكرار الكلام واستعارته . وهذا كله يؤكد أن الواقـــع والمألوف يثبتان أنه كانت هناك محاولات جادة في قرض الـــشعر ســـبقت مرحلة النضج الشعري وأن شعراء فحولا قد سبقوا امرأ القيس والمهلهل إلي قول الشعر ، وأنهم قد مهدوا لهما ولغيرهما الطـــريق إلي اكتمال صورته الفنية عندهم بعدما عاناه الأقدمون من الصعاب والعثار في ذلك .

* وبعـــد هذا كله نستطيع أن نؤكد أيضاً أن النقد قد ارتبط في نشأته بالـــشعر وأن النقد الأدبي في الجاهلية ثابت لا ينكر وذلك بما ركب في طباع الجاهليين ، وما جبلوا عليه من استحسان الجيد والإشادة به واستقباح الردئ والغض منه .

– كما يؤكد ذلك تلك المراحل التي مرت بها القصيدة العربية ، مـــن **الحداء فالسجع فالبيت فالأبيات فالقصائد فالحوليات** ، وهذه الأخيرة لم تنظم دفعة واحدة في فترة محدودة ، وإنما نظمها الشاعر الجاهلي علي دفعات في فترات متباعدة ، ومعني ذلك أنه لم يكن ينظم فحسب بل كان يفكر فيما ينظمه ويختبره ويفحصه قطعة قطعـــة وبيتاً بيتاً ، وما يزال يتأني فيه متخيراً لألفاظه ومعانيه ، ويتركه مدة من الزمن ، ثـــم يعـــود إليه فيعيد النظر في أجزائه ويأخذها بالتهذيب والتنقيح والـــتجويد ، فيصلح فيها ، وقد يحذف بيتاً وقد يزيد آخر ويظل علي ذلك عاماً تاماً حتى تستوي له حوليته أو مطولته منقحه غاية التنقيح.

ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمي وابنه كعب والحطيئة ، وسويد بن كراع وعدي بن الرقاع ، ويحيي بن علي المنجم ، وقد رأيناهم يسجلون في أشعارهم الجهد الذي يقومون به في تثقيف شعرهم وما يكابدونه من تجويد حتي يحظي بالقبول ويجود لدي الناقدين .

يقول سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما ** أصادي بها سرباً من الوحش نزعا
أكالئها حتي أعرس بعدما ** يكون سحيراً أو بعيداً فأجمعا
أهبت بعز الآبدات فراجعت ** طريقاً أملته القصائد مهيعا
بعيدة شأو لا يكاد يردها ** لها طالب حتي يكل ويظلعا
إذا خفت أن تروي علي رددتها ** وراء التراقي خشية أن تطلعا
وجشمني خوف ابن عفان ردها ** فثقفتها حولا حريدا ومربعاً
وقد كان في نفسي عليها زيادة ** فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا[1]

وهذا كعب بن زهير يذكر حاجة الشعر إلي التثقيف والتهذيب ، ويذكر فضله وفضل الحطيئة في هذا المجال يقول :

فمن للقوافي شانها من يحوكها ** إذا ما ثوي كعب وفوز جرول

---

[1] الشعر والشعراء صـ٨ : أصادي : أخادع ، نزعا جمع نازع من نزعت إلي مرعاها أي حنت إليه ، أكالئها : أراقبها وأحرسها ، أعرس : أنزل آخر الليل : والآبدات : الوحشيات النافرات ، ويقصد بها القوافي الشرود الغريبة ، أملته : ملكته والمهيع : الطريق الواضح الواسع ، الشأو : الغاية ، يظلع : يصيبه العرج . الحريد : الكامل التام . المربع : زمن الربيع .

يقومها حتي تلين متونهـــا °° فيقصر عنها كل ما يتمثـــل[١]

ويذكـــر عـــدي بـــن الرقاع العاملي كيف أنه يعالج المثقف رماحه ويتجشم في ذلك مثل ما يتجشم :

وقصيدة قد بت أجمع بينهـــا °° حتي أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناتـــه °° حتي يقيم ثقافة مـــنادها [٢]

ويتحدث أبو أحمد يحيي بن علي المنجم عما يصنع بشعره وما يقوم به من نقده فيقول :

رب شعر نقدته مثل ما ينقد رأس الصـــيارف الدنيارا
ثم أرسلته فكانت معانيه وألفاظـــه معـــاً أبكـــارا
لو تأتي لقالة الشعر ما أسقط منه حلـــوا به الأشـــعار
إن خير الكلام ما يستعير الناس منه ولم يكن مستعارا[٣] .

فالكثيـــر مـــن الـــشعراء مـــنذ أقدم العصور ، ينظرون في شعرهم ويتناولونه بالتهذيب والتجويد ، والتنقيح والاختيار ، ومن ثم نقول : إن العرب القدامى قد عرفوا النقد الأدبي وزاولوه عملياً ومارسوه فناً

---

(١) القوافي / القصائد والأشعار ، شانها من يحوكها : ألحق بها العيب من ينسجها ثوي ، فوز : مات ، جرول : الحطيئة

(٢) الشعر والشعراء صـــ٨ ، والميل : المعوج ، السناد : كل عيب في القافية قبل الروي ، والمثقف : من يصنع الرماح ويقومها ، القناة : الرمح ، الثقاف : الآلة التي تقوم بها الرماح ، المناد : المعوج .

(٣) العمدة / ابن رشيق جـــ٢ صـــ١٠٥

خالط طبيعتهم وساقتهم إليه شاعريتهم ، ولعلهم رأوا في ذلك وسيلة لتطوير الفن الشعري ، واستنهاضاً لهمم الشعراء وإذكاء لروح المنافسة بينهم .

فالذي لا شك فيه أن هذه المراحل والخطوات المتسمة بالتأني والتروي والتنقل من منزلة أدني إلي منزلة أعلي إنما تمثل مراجعة نقدية من الشاعر حينا ومن السامع حينا حتي وصلت بالقصيدة إلي وضعها المعروف .

وليس هذا كله إلا نمواً واضحاً لروح نقد عامة سرت بين شعراء الجاهلية حتي يؤثروا في سامعيهم تأثيراً كاملاً ، ولا نصل إلي زهير حتي نجد كتب الأدب تنص علي أنه كان راوية لأوس بن حجر ، أما هو فروي عنه الشعر ابنه كعب كما روي عنه الحطيئة ، وعن الحطيئة روي جميل ، فكان الشاعر المشهور يلزمه تلاميذ يرون عنه شعره وهم ليسوا دائماً من قبيلته ولا من أسرته ، فقد يرحل إليه شباب من قبائل أخري ليتعلموا الشعر علي يديه كما يتعلمون منه كيف يحسنون صنع الشعر ، وكيف يميزون جيده من رديئه . وإنما نزعم هذا الزعم لأنه وصلتنا عن معاصريهم بعض آراء وأحكام نقدية ، وهم بها أولي وأجدر لطبيعة قيامهم علي صناعتهم وتوفرهم علي تعليمها للناشئة من الشعراء . [1]

---

[1] فنون الأدب العربي – الفني التعليمي – النقد / شوقي ضيف صـ ٢٣

معني المذهب في والنقد الأدب

المذهب الأدبي أو النقدي :

هو مجموعة من التقاليد والقواعد والأسس يخضع لها الأديب في كل ما يقول وينظم وفي الطريقة التي ينظم بها والموضوعات التي يعالجها وما يتخذها فيها من طرق فنية في التعبير والموسيقي والتصوير والنهج العام .[١]

أو هو عبارة عن مجموعة مبادئ وأسس فنية أو فكرية أو اجتماعية أو نقدية قائمة علي وعي ، يتمسك بها الأديب أو الناقد ويوضح قيمتها وأهدافها ويناضل دونها ، ويوازن بينها وبين مبادئ مذهب آخر . [٢]

أو هو عبارة عن مجموعة مبادئ وأسس فنية يدعو إليها النقاد ويلتزم بها الكتاب في إنتاجهم ، تربط الأدب في شكله ومضمونه بمطالب العصر وتياراته الفكرية ، وهي لدي الداعين إليها والمنتحبين علي مقتضاها بمثابة العقيدة الممثلة لروح العصر ، وهي لذلك ليست مفروضة علي الكتاب والنقاد من خارج نطاق العمل الأدبي ، ومطالب جمهوره المتوجه به إليه .

---

[١] انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف صـ ١٩ بتصرف كبير ط دار المعارف

[٢] انظر الأدب ومذاهبه / محمد مندور صـ ٣٧ بتصرف كبير

° أو هو بعبارة أخري

اتجـــاه فكـــري وفنـــي واجتماعي يعكس روح عصره ويصور مثله ويـــستجيب لحاجاتـــه ويـــشارك في نشاطه ويمثل اتجاهاته ، ويقود إمكانـــياته ، فهو وليد العصر وظروفه ، والعصر هو الذي يفرضه علي كتابه ومفكريه ويوحي به إليهم .

العرب والمذاهب الأدبية

ليس من شك أن الشعر هو أعظم مظاهر الأدب عند العرب ، والذي ينظـــر إليه للوهلة الأولي يتوهم أنه لم يعرف شيئاً من تلك المذاهب الأدبية التي تلاحق ظهورها عند الغرب بدءاً من عصر النهضة حتي اليوم ، ومع ذلك فإنه من السهل أن نلاحظ أن الأدب العربي قد ظهر فـــيه هو الآخر من أقدم عصوره خصائص واتجاهات تميز بها شعر طائفـــة مـــن الـــشعراء المتعاصرين أو المتلاحقين ، كما نلاحظ أن الـــشعر العربي رغم طغيان التقليد عليه قد تطور – علي الأقل في خـــصائص صـــياغته – تطـــوراً كبيراً حتي انتهي إلي ذلك التصنع اللفظي الذي أحاله عبثاً مجرّداً من كل قيمة إنسانية حقة .

بل لقد أحدثت بعض قبائل العرب فنوناً شعرية قائمة علي مزاج أو فلـــسفة إنـــسانية خاصة وذلك مثل بني عذرة الذين نحوا في الغزل منحي أنتج ما لا يزال يسمي حتي اليوم **بالغـــزل العـــذري** .

وبيـــنما كانت تقاليد الشعر الجاهلي تجري علي أن يستقصي الشاعر الأوصـــاف الحسية للمحبوبة وينفق جهده في التغني بمواضع جمالها وفتنـــتها ، رأيـــنا الغزل العذري الذي انتشر في الحجاز في العصر الأمـــوي – يتجه اتجاهاً روحياً فيوفر الجهد علي التحدث عن لواعج الحب وتباريح الغرام .

ويكفـــي أن نقارن بين غزل امرئ القيس وغزل أحد العذريين كقيس أو جمـــيل أو كثيـــر ، لـــندرك الـــبون الـــشاسع بـــين الفنـــين وبين الاتجاهين .

ـ كمـــا شهد الأدب العربي القديم بعض المحاولات المذهبية الواعية كمحاولـــة أبـــي نـــواس فـــي الخروج علي تقاليد القصيدة العربية، وبخاصـــة فـــي قـــصائد المديح ، إذ أراد أن يدعو إلي الإقلاع عن استهلالها بوصف الأطلال والناقة والرحلة إلي الممدوح ليحل محلها وصف الخمر والتغني بنشوتها ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ولم تكون مذهـــباً ، لأن أبا نواس نفسه اضطر إلي أن يخضع للتقاليد الشعرية المتوارثة في المدائح لكي يصل إلي رفد ممدوحيه .

وعلي العكس من ذلك ظهر في العصر العباسي مذهب أدبي له كافة الخـــصائص المذهبـــية إذ تـــناوله الأدبـــاء والنقاد بالتحليل النظري وإيـــضاح الخصائص المميزة كما اقتتلوا في الدفاع عنه أو مهاجمته والموازنة بينه وبين تقاليد الشعر المتوارثة التي سموها عندئذ بعمود

الشعر ، وهذا المذهب هو المعروف باسم مذهب البديع الذي اعتبر أبو تمام مثلاً له .

وهكذا يتضح كيف أن الشعر العربي القديم لم تظهر فيه اتجاهات مختلفة فحسب ، بل ظهر فيه مذهب أدبي واع بما يفعل ومستند إلي أسس نظرية تحليلية واضحة ، وكلما تقدمت الدراسات الأدبية النقدية في عصرنا الحاضر ازددنا إدراكاً وتمييزاً للاتجاهات والمفارقات الدقيقة التي لم يكن بد من أن تظهر في تاريخ الشعر العربي الطويل وتعدد بيئاته وأزمنته ، فضلاً عن تباين طبائع الشعراء الخاصة واختلاف ظروفهم وثقافتهم .

وبالرغم من كل هذه الحقائق فإننا لا نستطيع أن نزعم أن الأدب العربي قد تتابعت فيه مذاهب الأدب المختلفة الواعية المستندة إلي أسس فلسفية ونقدية واضحة كما حدث في الآداب الغربية ، وهذا شئ طبيعي ، لأن المذاهب الأدبية العامة لم تأخذ في الظهور في العالم الغربي إلا منذ عصر النهضة والبعث العلمي ، أي منذ بدء انتشار الثقافة ونمو التفكير البشري ، بعد أن خرجت الإنسانية من ظلام القرون الوسطي بينما ظلت مصر والعالم العربي كله غارقين في ذلك الظلام حتي ابتدأت حركة البعث والنهوض متأخرة عند زميلتها في العالم الغربي بما يقرب من أربعة قرون . ثم حاولنا جاهدين أن نعوض ما فات وأن نلاحق ركب الإنسانية العام ، آملين

أن نقطع في أوجز وقت ما سبقتنا الإنسانية إلي قطعه من مراحل في القرون الطويلة التي تخلفنا خلالها عن الركب .

الاتجاهات النقدية في الجاهلية

✍ السليقة و الطبع عند نقاد الجاهلية :

كـــان النقد في الجاهلية تقوده الفطرة والذوق والسليقة ، ويتسم بالبعد عـــن المنهجية ، وأول صور النقد في عصر الجاهلية ما عرف من تلـــك المحـــاولات الأولـــية التـــي كانت تحدث بالمواسم والأسواق والمجامع الحافلة ، والمحافل الجامعة ، حيث كان يحضرها الشعراء ويتناشـــدون أشعارهم ويتباهون بجودتها ، بينما يجلس للحكم لهم أو عليهم ، وللفصل فيما بينهم سادة مقدمون ، وعلماء وشعراء ناقدون وكـــان الشعراء ينزلون علي حكمهم ويرضون به ولا ينازعونهم في ذلك ، كما كانت أحكام الحكام من النقاد ذاتية محضة ، يعتمدون فيها علـــي أذواقهم الشخصية دون استناد إلي أسس معروفة ، أو مقاييس مألـــوفة ، وكانـــت هـــذه الأحكـــام التي يصدرونها بالاستحسان أو الاســـتهجان دون تعلـــيل ، فهـــي لا تعتمد إلا علي الذوق والفطرة السليمة .

والمتتـــبع لمـــا وصل إلينا وما قدمته لنا مصادر التراث العربي من شواهد نقدية عن هذا العصر يدرك عن طريق الاستقراء أن النقد في العصر الجاهلي قد دار في اتجاهات عدة منها .

١) الجانب اللغوي " الاتجاه اللغوي "

٢) الاتجاه المعنوي " النقد المعنوي "

٣) الاتجاه العروضي " النقد العروضي "

أولاً : الإتجاه اللغوي " النقد اللغوي "

لقـد كان العربي ذا صلة وثيقة بلغته وبأسرارها وبمدلولات ألفاظها فـإذا جانـبه الصواب وابتعد عنه ، واستعمل العربي لفظة في غير موضـعها لا حقيقة ولا مجازاً ولم يلمح هناك علاقة بين ما وضعت له وما نقلت إليه حينئذ تستطيع أن تقول إن الشاعر العربي قد تورط ووقع تحت طائلة النقد في غفلة منه .

– تروي لنا كتب التاريخ الأدبي أن طرفة بن العبد قد استمع وهو لا يـزال غلاماً صغيراً إلي المسيب بن علس وهو ينشد إحدي قصائده وقد ألم فيها بوصف بعيره " جمله " علي هذا النحو :

وقد أتناسي الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم[1]

فقـال طـرفة " استنوق الجمل" وذلك لأن الشاعر وصف الجمل بما توصـف به النوق وهي الصيعرية وهي سمة تكون في أعناق النوق خاصة لا الجمال .

ويـروي أن طرفة : وهو صبي يلعب مع الصبيان . قال هذا القوْل للـشاعر الجاهلي المتلمس . فقد ذكروا أن المتلمس مر بمجلس بنيَ قيس بن ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم :

ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم

نحييك عن شحط وإن لم تكلم

---

[1] الناجي : البعير السريع في سيره ، مكدم : من الكدمة وهي الوشم

فلما انتهي إلي قوله :

وقد أتناسي الهم عند احتضاره بنا ج عليه الصيعرية مكدم

قال طرفة " استنوق الجمل ، فقال الشاعر : يا غلام ! من أنت ؟

فقـــال : طرفة بن العبد فقال الشاعر : اذهب إلي أمك بمؤيدة : أي داهية ، وقيل إن الذي أنشد هذه الأبيات هو عمرو بن كلثوم التغلبي بين يدي عمرو بن هند ملك الحيرة – وعنده طرفة بن العبد .

وسواء أكان النقد موجهاً إلي المسيب أم المتلمس أم عمرو بن كلثوم فإن هذا لا يعنينا بقدر ما يعنينا دلالة هذا النقد علي دقة هذا العربي فـــي تحـــري الألفـــاظ ، وإنكاره علي الشاعر وصفه بعبارة ساخرة معتمداً علي حسه اللغوي في تخطئة الشاعر الذي جانبه الصواب في استعمال اللفظ .

– وفـــي هذا النقد نلمس بعض الموضوعية في الحكم ، بيد أنه حكم جزئي لم يحط بالبيت من جميع عناصره ، وإنما اقتصر علي عنصر اللفظ فقط .

ومن النقد اللغوي أيضاً : ما عابه قيس بن معد يكرب – أحد أشراف اليمن – علي الأعشي ، حين مدحه بقصيدته التي جاء فيها :

ونبـــأت قيســـاً ولم أبلـــه وقـــد زعموا ساد أهل اليمن

فعـــاب قيس الأعشي باستعمال كلمة – زعموا – في هذا المقام الذي يمدحـــه فيه ، ونبهه إلي أن سيادته أهل اليمن ليست زعماً ، فالزعم

– كمـــا يقولـــون – مطية الكذب .فأحس الأعشي بخطئه اللغوي ، فأصلح البيت وإن لم ينفعه إصلاحه – فقال :

ونبات قيســاً ولــم آته   علي نأيه ســاد أهل اليمن

– ففـــي مـــا تقدم دلالة علي أن العربي كان يدرك بفطرته السليمة مـــدي التلاؤم بين الألفاظ ومدلولاتها ، فإذا ابتعدت أو انحرفت عن دلالـــتها عـــد ذلك عيباً وازدراء ، ولما كان الطبع آنئذ سليماً والدقة متوفرة عند العربي قل هذا النوع من النقد وندر .

ثانياً : النقد المعنوي

المعني روح جسمه اللفظ ، فإذا ما ألبست المعاني ألفاظاً لتعبر عنها تعبيـــراً مطابقاً لما وضعت له كان ذلك من خير القول وبليغه ، وقد فطـــن نقـــاد العرب في العصور التالية للعصر الجاهلي لمقاييس نقد المعني الشعري فبدأوا يقيسون المعني بمقاييس شتي منها :

١- الصحة والخطأ   ٢- الابتكار والتقليد

٣- الطرافـــــــة   ٤- الوفاء بالمعني

٥- الشرف والصنعة .... إلي غير ذلك من المقاييس

بـــيد أن الـــنقد الجاهلي من جهة المعني ، والذي اهتدي إليه العربي بذوقـــه الفطـــري ومعارفه يثبت أنه كان حريصاً كل الحرص علي تطويـــر فنه الشعري ، والصعود به إلي مستوي راقٍ يليق بهذا الفن الجميل .

كما أدرك العربي بذوقه الفطري أن اللغة إنما وضعت لتعبر عن كل ما يجيش بصدره وعما يدور حوله في الطبيعة ، لذا فإن الشاعر كان يطمئن ويعجب بنفسه إذا ما طابقت اللغة المعني الذي يريد الإفصاح – أو التعبير عنه مطابقة سليمة ، أما إذا خانه لسانه وابتعدت العبارة عن إصابة الهدف المنوط بها فإنه كان يسخط ويتبرم .

– وقـد وضـع النقاد في نقدهم لمعانيهم مقاييس لتحديد الشعر الجيد وهي :

١) الملاءمة بين اللفظ والمعني مع تناسق العبارات واتساقها .

٢) النظر في جودة الشعر من حيث أدائه ووظيفته الجمالية .

٣) النظر في المبالغة ومدي ملاءمتها للطبع الجاهلي .

٤) الموازنة بين نموذجين شعريين والحكم لأحدهما علي الآخر .

وعن طريق الأمثلة والنماذج التي أوردتها كتب الأدب سنمضي في شرح تلك المقاييس .

١) **الملائمة بين اللفظ والمعنى** : لا ريب أن ملاحظات الشعراء الجاهليين لم تصلنا كاملة ، ولكن الدلائل كلها تدل علي كثرتها وخاصة عند الرواة المعلمين منهم ، بل لقد تحول بعض هؤلاء المعلمين إلي نقاد يفرضون أنفسهم علي الشعراء ، وأهم من عرف بذلك النابغة الذبياني فقد كانت تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارهم فمن نوه به طار ذكره

فـــي الآفاق – وكان الشعراء ينزلون علي حكمه ولا يردون له قولاً وذلـــك لخبـــرته وتجاربه ونظره الثاقب ومكانته في دولة القريض ، واجـــتماع العرب علي الرضا بآرائه وقضائه بين الشعراء يدل علي عـــناية العرب الجاهليين بالنقد واتخاذه وسيلة إلي تطوير فن الشعر وممن عرض عليه شعره فحكم بينهم الأعشي ، والخنساء وحسان بن ثابت وقد اجتمعوا عليه بعكاظ ..فأنشده الأعشي " ميمون بن قيس " قصيدته الطويلة المشهورة في المدح التي مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

ثم أنشده حسان بن ثابت قصيدته التي استهلها بقوله :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما بمدافع أشداخ فبرقة أظلما

وفيها يقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحي وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني مخـــرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما[1]

ثـــم أنـــشدته الخنـــساء بنت عمرو من قولها في رثاء أخيها صخر قصيدتها التي مطلعها :

قذي بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت مذ خلت من أهلها الدار

---

[1] العنقاء : هو ثعلبة الجد البعيد للأوس والخزرج ، ويريد بالمخرق هنا الحارث بن جبلة ملك الغساسنة المشهور في الجاهلية .

فما انتهت إلي قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال النابغة : والله لولا أن أبا بصير " الأعشي " أنشدني قبلك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق "

فقد أشاد النابغة بالأعشي ثم الخنساء ، ومقتضي الحكم أن النابغة قدم الأعشي وأعقبه الخنساء وأهمل شأن حسان قائلاً له : أنت شاعر ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك " فغضب حسان وقال له : (والله لأنا أشعر منك ومن أبيك) فقبض النابغة علي يده وقال له : يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

خطاطيف حجن في حبال متينة تمد بها أيد إليك نوازع

فخنس حسان لقوله [1]

وفي الحقيقة إن نقد النابغة لحسان نقد سديد لأن النابغة تناول فيه مسألتين : أحدهما لفظية والأخري معنوية ، أما اللفظية فإن حساناً لم يجمع الجفنات والأسياف جمعاً يدل علي الكثرة ، والعرب تستحب المبالغة في مثل هذا الموقف حين يفخر الشاعر بالكرم والشجاعة في

---

[1] الأغاني جـ ٩ صـ ٣٤٠ ، والموشح صـ ٦٠

قبيلـــته ، أما المسألة المعنوية ففخره بمن ولدته نسأؤهم ، والعرب لا تفخر بالأبناء وإنما تفخر بالآباء .

ويروي أن النابغة عاب علي حسان أيضاً قوله " الضحى " وقال : لو قـــال " الدجي " لكان أحسن لأن الضيف أكثر ما يكون طروقاً بالليل لا بالـــنهار وأن حاجـــته إلي الرفد في الليل أشد ، وقوله " يقطرن " وقال : لو قال يجرين ، أو يسلن لكان أدعي للشجاعة ، لأن الجري أكثر من القطر ، فالقطر يدل علي أن نيلهم من أعدائهم محدود .

ومـــن ذلك النوع من النقد أن الشماخ بن ضرار الشاعر مدح عرابة أحد أشراف الأوس ، فقال يخاطب ناقته :

إذا بلغتني – وحملت رحلي – عرابة فاشرقي بدم الوتين [1]

فعـــاب عليه أحيحة بن الجلاح ذلك وقال له : بئس المجازاة جازيتها وذلـــك لأن الشاعر يخاطب ناقته ويقول لها إذا بلغتني " أوصلتني " إلي عرابة : فموتي فلم يعد لك فائدة ، لأنه وصل إلي ممدوحه التي ســـيعطيه الكثير وهل هكذا يكون جزاء من أوصله إلي ممدوحه أن يدعو عليه بالموت والهلاك ؟ !

---

[1] الوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ، واشرقي : من شرق برقيه أي غص .

٢) النظر في جودة الشعر حين أدائه ووظيفته الجمالية

ومعنـــي ذلـــك ألا يلقـــي الـــشاعر شعره جزافاً دون أن يتخير من الإحساس أجوده ومن الشعور أجمله ومن الأوقات أنسبها كي يؤدي الشعر وظيفته المنوطة به ، ويبدو أن الشعراء حينئذ كانوا يتفاخرون بـــشعرهم ،ويتنافـــرون فيه كما يتنافر الأشراف في سؤددهم فكانوا يعرضونه علي المحكمين ليفصلوا بينهم وقد بقيت لنا من ذلك منافرة نرى فيها الزبرقان بن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدي يتحاكمون إلي ربيعة بن حذار الأسدي في شعرهم أيهم أشعر وكان ربيعة من عقلاء العرب وحكمائهم .

فقـــال للزبرقان : " أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا تـــرك نيئاً فينتفع به ، وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر يـــتلألأ فيها البصر كلما أعيد فيها النظر نقص البصر ، وأما أنت يا عـــبدة فـــإن شـــعرك كمـــزادة أحكـــم خـــرزها فـــلا هـــي تقطر ولا تمطر ، وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم .

فـــشعر الزبـــرقان في نظر ربيعة لم ينضج فنياً بعد ، وشعر عمرو يبهـــر السامع للوهلة الأولي فهو يخدع البصر ولكن عند التأمل فيه تبـــرز نواحي ضعفه وقصوره وشعر عبدة قوي محكم لا تهافت فيه ولـــذلك شبهه بالمزادة التي أحكم خرزها فهي تحمل الماء فلا يقطر

منها وشعر المخبل لم يبلغ بعد مرتبة فحول الشعراء ولكنه في الوقت نفسه لم ينحط إلي مهاوي أدعياء الشعر فهو بين المنزلتين وهذه كلها تأويلات لحكم ربيعة ، لأنها أحكام جاءت كلها غامضة فهي لا تخلف وراءهـا شـيئاً دقـيقاً واضحاً ،وإنه من الخطأ أن نطلب من الناقد الجاهلي نقداً دقيقاً ، فحسبه أن يرينا تأثير الشعر والشاعر في نفسه .

- ومـن أمثلة هذا النوع أيضاً موقف النعمان بن المنذر من النابغة الذبياني حين مدحه بقوله :

تراك الأرض إما مت خفا وتحيا إن حييت بهآ ثقيلاً

فقـال لـه النعمان : هذا بيت إن لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلي الهجـاء أقـرب منه إلي المدح ، فأراد ذلك النابغة فعسر عليه فقال للـنعمان : أجلنـي قال : قد أجلتك ثلاثاً فإن أنت اتبعته بما يوضح معـناه فلـك مائة من النوق ، فأتي النابغة زهيراً وقال له البيت كي يجيـزه " أي يكمـل بعده ما يتم معنا فتلكأ زهير في الإجازة وكان كعب بن زهير حاضراً فقال من فوره :

وذاك بأن حللت العز منها فتمنع جانبها أن يزولا

فقال النابغة : جاء بها ورب الكعبة .

مـن هـنا ندرك أن الإبهام في الشعر عجز وعيب ، وأن الوضوح مقياس هام من مقاييس جودة الشعر .

ويدخل في باب جودة الشعر والبحث عن نواحي الجمال فيه ما خلعه النقاد في الجاهلية علي الشعر من وصف موجز مثل

أغزل بيت ، أمدح بيت ، أهجي بيت ، أرثي بيت ....إلخ

فقد قال الأصمعي ، أغزل بيت قالته العرب قول امرئ القيس

وما زرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل [١]

وإن كـــان العلماء قد اختلفوا في ذلك فقال بعضهم بل أغزل بيت هو لعمـــر بن أبي ربيعة أو جميل بن معمر أو للأحوص ــ بيد أن كل هــؤلاء كانوا في العهد الإسلامي وما زال كلامنا ينصب علي النقد الجاهلي .

وقالـــوا لما حضرت الحطيئة الوفاة قال : أبلغوا الأنصار أن أخاهم أمدح الناس حيث يقول :

يغشون حتي ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وقال ثعلب : بل قول الأعشى :

فتي لو يباري الشمس ألقـــت قناعها

أو القمر الساري لألقي المفالدا

أمدح منه [٢]

وقال آخرون غير هذه الأبيات

---

[١] العمدة ابن رشيق جـــ ٢ صـــ ١٢٠ دار الجيل .

[٢] السابق جـــ ٢ صـــ ١٣٩ .

- ويروي عن أبي عمرو الشيباني : أن عمرو بن الحارث الغساني أثني علي قصيدة حسان بن ثابت التي منها :

لله در عصابـــة نادمتهـــم يوماً بجلق في الزمان الأول [1]

وسماها البتارة " فكأنها قد بترت وقطعت المدائح كلها عنده

- كمـــا كان النقاد يلقبون قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري التي مطلعها :

بسطـــت رابعـــة الحبـــل لنـــا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

باليتيمة لشدة إعجاب الجاهليين بها فكأنها لم تسبق ولم تلحق بأفضل منها فسموها كذلك

- يقول حسان بن ثابت : قدم النابغة المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ثم جثا علي ركبتيه ثم اعتمد علي عصاه وأنشأ يقول :

عـــرفـــت منازلاً بعريتنات فأعلي الجزع للحي المبين

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته قد تبع قافية منكرة ، فمازال ينشد حتي أتـــي علي آخرها ، ثم قال : إلا رجل ينشد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشده :

أتعرف رسماً كالطراد المذاهب لعمرة وحشاً غير موقف راكب

حتـــي فرغ منها فقال النابغة : أنت أشعر الناس يا ابن أخي ، فقال حسان : قد خلني منه وأني لأجد القدرة في نفسي عليهما ، ثم تقدمت

---

[1] جلق / دمشق

فجلست بين يديه ، فقال : أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم وكان يعرفني قبل ذلك فأنشدته فقال : (أنت أشعر الناس) [1]

٣) النظر في المبالغة ومدي ملاءمتها للطبع الجاهلي :

حمل الشاعر الجاهلي صوراً عديدة وكثيرة من المبالغة والغلو ، بيد أن النقاد من الجاهليين – بذوقهم الفطري – قد لاءموا بين الطبع والمبالغة ملاءمة كبيرة ، وكذلك بين ما يستريح إليه ذلك الطبع العربي من ألوان تلك المبالغة ، وذلك لعلمهم أن النفس الإنسانية تميل إلي المبالغة والتهويل في كل ما يصدر عنها ، وهي كذلك تجنح إلي الغلو في تصوير أسرار الطبيعة ، فجعلوا الفطرة السليمة هي الضابط المقنن لهذا الغلو وهذه المبالغة .

ولهذا وجدناهم يثنون علي قول عنترة في الكرم وينزلونه منزلاً رفيعاً ومكانة سامية حين يتحدث إلي محبوبته ويقول :

وإذا سكرت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمائلي وتكرمي

– وذلك لأن الكرم لاصق بنفوسهم مختلط بدمائهم ، فالمبالغة فيه محمودة والغلو فيه غير ممقوت لأنه من مكارم أخلاقهم

أما حين يبالغ شاعرهم في غير ما يرضي فيه حاسة أو نزعة ، فإنهم يحسون بالفجوة بين هذا الشاعر وبين بيئتهم ، ويجدون في

---

[1] الأغاني جـ ٣ ص ٨

شعره شيئاً غريباً لم يألفوه في حياتهم ومن أجل هذا وجدناهم ينقدون مـــا تضمنه الشعر من معان غريبة ، فالبيئة العربية بفطرتها تتوخي الـــصدق والقـــرب مـــن الواقع إلي حد كبير ، في حين أنها لا تحبذ المـــبالغة المسرفة ، أو تدعو إلي الإغراق الممقوت ، ولهذا قيل في بيت المهلل الذي يصف فيه وقع السيوف علي الدروع في موقعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر . صليل البيض تقرع بالذكور

إنـــه أكـــذب بيت قالته العرب إذا بين " حجر " وبين مكان الموقعة مسيرة عشرة أيام .

ومـــن ذلك ما جاء في الأثر أن رجلاً قال لزهير : أني سمعتك تقول لهم :

ولأنت أشجع من أسامة إذ دعيت نزال ولج في الذعر

وأنت لا تكذب في شعرك فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟ فقال : إني رأيته فتح مدينة وحده وما رأيت أسداً فتحها قط !

فزهيـــر هـــنا تخلص من الموقف والتمس لنفسه مخرجاً من المبالغة إذن دائرة المعقول هي التي تحكمهم .

ولـــذلك نجـــد الـــشعراء قد لجأوا إلي ألفاظ تقربهم من هذه الدائرة وتخفف من غلواء المبالغة كلفظة : يكاد أو " يوشك " مثلاً .

ولـــذلك فـــإن العـــرب لم تنتقد أوس بن حجر حين وصف السحاب الكثيف بقوله :

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يلمسه من قام بالراح

لأن لفظـــه " يكـــاد " جعلت المبالغة مقبولة قريبة من الطبع العربي الذواق ، وحببتها كذلك إلي نفس العربي فاستراح إلي هذا اللون من المبالغة .

٤) الموازنة بين نموذجين شعريين والحكم لأحدهما على الآخر .

روي ابـــن قتيبة الدينوري في كتابه " الشعر والشعراء " في أخبار علقمـــة الفحل وكذلك المرزباني في كتابه " الموشح " تلك الأسطورة التـــي تزعم أن امرأ القيس وعلقمة بن عبدة " علقمة الفحل " تنازعا في الشعر أيهما أشعر واحتكما إلي " أم جندب " زوجة امرئ القيس – ولعلهـــا كانت شاعرة ، فقالت لينظم كل منكما قصيدة يصف فيها فرســـه ولتلتزما وزناً واحداً وقافية واحدة ، فصنع كل منهما قصيدة بائـــية من وزن الطويل ، وأنشداها القصيدتين فقال امرؤ القيس في مطلع قصديته :

خليلي مرا علي أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة في مطلع قصيدته :

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

ثم أنشداها جمعياً ، فقالت لزوجها " امرؤ القيس " : علقمة أشعر منك قال : وكيف ذاك ؟ قالت لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب [١]

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك ، ومريته فأتعبته بساقك

وقال علقمة :

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب [٢]

فـأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه لم يضربه بسوط ولا مرأه بساق ولا زجره فلم يتعبه)

فقـال امـرؤ القـيس : ما هو اشعر مني ، ولكنك له وامق (محبة عاشقة) فطلقها فخلفه عليها علقمة " تزوجها " فسمى بذلكٌ " علقمة الفحل "

- (وكل هذه الآراء والأحكام بسيطة فهي ثمرة نقد أولي يعتمد علي الذوق والإحساس الساذج الذي لم يعقد ، وقد يكون أدخل هذه الأحكام فـي بـاب النقد حكم زوجة امرئ القيس ومع ذلك فإنها وقفت عند جـزئية ،وقد يكون علقمة أشعر في هذه الجزئية من زوجها ، ولكن زوجهـا أشعر منه في القصيدة جميعها علي أن العيب قد يكون في فـرس امرئ القيس ، فهو وصاحبه إنما يصفان الواقع ، وحتي إذًا سـلمنا لهـا بأن قصيدة علقمة أجود من قصيدة زوجها فإن ذلك لا

---

[١] الألهوب : اجتهاد الفرس في عدوه وكذلك الدرة ، والأخرج : ذكر النعام وهو الظليم ، ومهذب : مسرع .

[٢] الرائح : سحاب العشي ، المتحلب : المتساقط

يعطـيها الحق في أن تحكم له حكماً عاماً بتفوقه في شاعريته عليه وأنه أشعر منه)[١] ويبدو أن أم جندب أصدرت حكمها متأثرة بعامل نفـسي وهـو بغضها امرئ القيس فقد كان مع حسنه وجماله مفركاً تعافـه النساء سريع الإرواء بطئ الإفاقة ثقيل الصدر خفيف العجز هذا العامل النفسي جعلها تفضل شعر علقمة علي شعر امرئ القيس – وفـي هـذه الـرواية نظـر ممـا حمل عبد الله بن المعتز علي إنكارها [٢]

ثالثاً : الاتجاه العروضي " النقد العروضي "

اهـتدي العربي قديماً عن طريق حداء الإبل وغيره إلي وحدة إيقاع يـشعر بها ، وينظم عليها قوله ، ثم استقامت أنغامه واستقرت بعدما اسـتقام الشعر واستوي وتطور ، وأصبحت أنغام الشعر مألوفة لدي سـمع العربـي يطمـأن إلـيها متي اتسقت وتناسقت ، فإذا اختلفت واضـطربت نـبا سمعه وضاق صدره ، وظل يعالج هذا بإحساسه وذوقـه حتـي اسـتطاع أن يقـف علـي مواطن الضعف والعيب في شعره .

– يذكر الرواة أن أهل الطبقة الأولي من الجاهليين وأشباههم لم يقو مـنهم إلا الـنابغة والإقـواء : هو المخالفة بين حركات الروي في

---

[١] النقد / شوقي ضيف صـ ٢٥ .

[٢] تاريخ النقد عند العرب / أحمد الشايب صـ ٢٢ .

القـــصيدة وكـــان ذلك حينما قال قصيدته التي يصف فيها المتجردة زوج النعمان بن المنذر وقد افتتح القصيدة بقوله :

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود [١]

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذلك خبرنا الغراب الأسود[٢]

ثم قال :

سقط النصيف ولم تزد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد [٣]

بمخضب رخص كـــأن بنانـــه عنم يكاد من اللطافة يعقد [٤]

وكـــان أهـــل الحجاز كغيرهم يعجبون بالنابغة ويقدمونه ، فلما قدم المديـــنة : عاب أهلها ذلك عليه فلم يأبه له ، فدسوا له جارية تغني شـــعره وقالـــوا لها إذا صرت إلي القافية فرتلي " مدي صوتك " بها فلما مدت صوتها بقافية الأبيات أحس النابغة ما فيها من نشاز ظهر مـــن اخـــتلاف حـــركتها ، فقام من فوره ولم يلبث أن غير الروي المضموم في " الأسود " ويعقد " فقال في الأول :

وبذاك تنعاب الغراب الأسود .

---

[١] أراد النابغة بالزاد هنا التوديع والتسليم

[٢] البوارح : جمع بارح وهي طيور كانوا يتطيرون بها ويتشاءمون منها ومنها الغراب .

[٣] النصيف : كل ما يغطي الرأس

[٤] المخضب : المصبوغ بالحناء ، الرخص : الناعم ، العنم : شجر بالحجاز له ثمر أحمر مستطيل يشبه به البنان (طرف الأصبع) المخضب .

وقال في الثاني

عنـــم علي أغصانـــه لم يعقد

وقـــال : (قدمت الحجاز وفي شعري هنة ، ورحلت عنه وأنا أشعر الناس) [١]

يتـــضح مما سبق من نماذج لأنواع النقد ، أن النقد العربي في مبدأ الأمـــر كان نقداً أولياً فطرياً لا يعتمد إلا علي الذوق الخالص ، ولا يسلك سبيل التحليل والتعليل إلا قليلا ، أما في الغالب فقد كان الرجل يستمع إلي قصيدة من القصائد ، أو إلي بيت أو أبيات منها فيتأثر بها تأثـــراً ما ، فيصدر عليها حكماً عاماً بالجودة والاستحسان أو القبح والاستهجان ، ولا يزيد شيئاً علي ذلك ، وقد عرف العرب هذا اللون مـــن الـــنقد وهذه الطريق في الحكم في العصر الجاهلي وكذلك في عـــصر صـــدر الإسلام فكل النقدات السابقة إنما تعتمد علي السليقة والفطرة ، وتأثر الناقد بهذا الأثر الأدبي .

---

[١] طبقات فحول الشعراء : ابن سلام الجمحي صـــ ٥٥ والموشح صـــ ٣٩ .